نصوص مختارة

من العصر العبـــاسى الثانى

(٣٣٤ - ٤٤٧ هـ)

اختيار ونقد

الدكتور محمد السعدى فرهود

المدرس فى كلية اللغة العربية

الطبعة الأولى

١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م

مطبعة الرسالة

٣ شارع حودة المقاول — عابدين

القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين

وبه نستعين

اخترت هذه النصوص ؛ ليدرسها الطلبة فى كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ، ووضعت حول كل نص عدداً من الملاحظات والنقود ، نحاول من خلالها التعرف على فكرة النص ، وعناصره المكونة له ، وصوره ، وما تكشف عنه من ملامح المنشئ ، ومناحى ثقافته ، ومجالى فكره ، وخصائص أدبه ، ومدى تأثره ببيئته ، ودوره الذى أتيح له أن يؤديه على مسرح التطور الأدبى .

ولقد وددت أن أكل إلى الطلاب البحث فى « المعاجم » عما يصادفونه من مفردات صعبة ، لولا خوفى من أن تشغلهم عنه شواغل ؛ ولذا آثرت أن أتولى عنهم هذا العبء ، فلعلهم يفيدون منه ، عندما يتمرسون بالنظر فى النصوص ، وشرحها ، والعبارة عنها بأساليبهم .

على أنى أرى فى صعوبة المفردات أمراً نسبياً ، فقد كانت لدى المتكلمين بها والمتذوقين لها — فى زمانهم — أيسر شىء عليهم ؛ لأنهم كانوا يتداولونها . واللغة — أى لغة — تحيا بالاستعمال ، وتموت بالإهمال .

ونحن الآن نتنادى بالقومية العربية ، ووحدة الأمة العربية . واللسان العربى الفصيح هو الجامعة التى تجمع كلمتنا ، ونظرنا فى لغة أجدادنا حياة للعربية الفصحى ، وحياة للقومية المنشودة ، وسبيل إلى وحدة الكلمة ، ووحدة الأمة .

ونسأل الله — تعالى — التوفيق والرشاد ؟

القاهرة { رجب ١٣٨٨ هـ
أكتوبر ١٩٦٨ م }

السعدى

النص الأول

قال المتنبى يمدح سيف الدولة ، فى مناسبة انتصاره على الروم فى موقعة « الأحيدب » وبنائه ثغر « الحدث » سنة ٣٤٣هـ .

١ - على قَدْرِ أهل العزم تأتى العزائمُ وتأتى على قدر الكرام المكارمُ

٢ - وتَعْظُم فى عَيْنِ الصغير صِغارُها وتصغُرُ فى عين العظيم العظائمُ

٣ - يُكَلِّفُ سيفُ الدولة الجيشَ هَمَّه وقد عجزتْ عنه الجيوشُ الخضارمُ

---

١ - العزم : الجد فى الأمر . يقال : عزم الرجل على الأمر (من باب ضرب) عزما وعزمانا وعزيما وعزيمة ، أى جد فيه ، ويقال : عزمت على الأمر واعتزمت عليه : أردت فعله ، ويقال : عزمت على الرجل بكذا : أقسمت عليه بكذا . وأولو العزم من الرسل : الذين جدوا فى إبلاغ الرسالة وثبتوا وصبروا فى ذلك . والعزائم : جمع عزيمة وهى العزم . وتسمى الرقى عزائم وعزائم الله : فرائضه . والكرام : جمع كريم وكريمة . والمكارم . جمع مكرم ومكرمة (بضم رائهما) وهو فعل الكرم . والكرم يقتضى النزاهة والعزازة وكل ماهو ضد اللؤم .

٢ - صغارها : الضمير يعود على العزائم والمكارم . « وأل » فى العظائم بديل من هذا الضمير .

٣ - يكلف : من التكليف ، وهو الأمر بما يشق . همه : هنا بمعنى همته . ويطلق الهم أيضا على الحزن وعلى ماهم به الرجل فى نفسه . الخضارم (بفتح الخاء وتخفيف الضاد) : جمع خضرم (بكسر فسكون فكسر) وهو فى الأصل : الكثير العظيم من كل شىء ، ويسمى به الجواد المعطاء .

٤ ـ ويَطلبُ عند الناس ما عند نفسه وذلك مالا تدّعيـــه الضراغم

٥ ـ يُفَدِّى أتمُّ الطير عمراً سلاحَه نسورُ الملا أحـــداثُها والقشاعم

٦ ـ وما ضَرَّها خلقٌ بغير مخالبٍ وقد خُلِقت أســـيافُهُ والقوائم

٧ ـ «هل الحدَث» الحمراء تعرف لونها وتعلم أىّ الســـاقِيَيْنِ الغمائم

---

٤ ـ الضراغم : جمع ضرغم (مثال جعفر) وضرغام وضرغامة (بكسر أولها) وهو الأسد ، ويطلق أيضا على الشجاع . ويقال : ضرغم الأبطال (لازما) وتضرغموا أى فعلوا فعل الضرغام وتشبهوا به .

٥ ـ يفدى ـ من التفدية ـ يقال : فداه تفدية أى قال له : جعلت فداك . وأتم الطير عمرا : أى أطولها عمراً وهو النسر ، وأتم من التم والتمام (مثلثتين) . الملا (وزان العصا) : الصحراء . وقد يكون جمع ملاة ، والملاة هى الفلاة القفر ذات الحر الأحداث : جمع حدث (وزان بطل) الصغير السن يقال : فلان حدث السن وحديثها أى فى أول عمره ، وتطلق الأحداث على الأمطار أول السنة ، كما تطلق على حوادث الدهر . القشاعم : جمع قشعم (وزان جعفر) المسن من النسور وهو المراد هنا ، ويسمى المسن من الرجال قشعما . ويقال للحرب والمنية والداهية : (أم قشعم) لطول نفسها .

٦ ـ ماضرها : ما ـ نافية أو استفهامية للنفى . خلق : الخلق فى الأصل مصدر خلق وهو بمعنى قدَّر أو صنع أو أبدع ، والإبداع الاختراع على غير مثال سابق . مخالب : جمع مخلب كمنجل وزنا ومعنى ، ويطلق على ظفر السباع والطير الجارح . القوائم : جمع قائمة وهى هنا مقبض السيف ، ويسمى أيضاً القائم .

٧ ـ الحدث : الثغر الذى اقتتل عليه سيف الدولة والرومان . الغمائم : جمع غمامة مثال سحابة وزنا ومعنى ، أو الغمامة هى السحابة البيضاء .

٨ - سَقَتْهَا الغمامُ الغرُّ قبلَ نزوله ! فلما دنا منهـا سقتها الجماجم

٩ - بَنَاها فأعلى والقنا تقرعُ القنا ومَوجُ المنـايا حولَهَا متلاطم

١٠ - وكان بها مثلُ الجنونِ فأصبحتْ
ومن جُثَثِ القتـلَى عليها تمائم

١١ - طريدةُ دهرٍ ساقَهَا فَرَدَدْتَهَا على الدِّين بالخطِّيِّ والدهرُ راغم

---

٨ - الغر (بالضم) : جمع قياسي لأغر وغراء ، وتوصف بها الغمام إذا كانت شديدة المطر أو بيضا ، وبياضها من البرق الصادر عنها ، ولا يكون من تراكمها وتزاحمها . الجماجم : جمع جمجمة (بضم الأول والثالث) وهى العظم فيه الدماغ ، وتسمى أيضا القحف .

٩ - القنا : جمع قناة وهى الرمح . المنايا : جمع منية - فعيلة من المَنى - كلاهما بمعنى الموت . متلاطم : من المجاز أن تقول : تلاطمت الأمواج والتطمت إذا ضرب بعضها بعضا ، وأصل المادة (اللطم) ، وهو الضرب على الوجه أو الخد بالكف مبسوطة ، وهو يقتضى الاضطراب .

١٠ - تمائم : جمع تميمة ، ويطلقها العرب على العوذة يتوقون بها مس الجن ، وكانوا يصنعونها من خرزة رقطاء (سوداء بيضاء) ينظمونها فى سلك يعلق فى العنق .

١١ - طريدة : فعيلة بمعنى مفعولة : ما طردته من صيد أو غيره ، وتقول : طردته أى نفيته عنى .

الخطى : الخط مرفأ السفن فى (البحرين) ، وكان سوقا مشهورة لبيع الرماح فنسبت إليها .

راغم : من الرغم وهو الكره والقسر والذل والتراب ، ويقال فى المجاز : رغم أنفه ، وأنفه راغم ، إذا ذل ، كأنه ألصق بالرغم أو الرغام أى التراب .

١٢ - تُفيتُ الليالى كلَّ شىء أخذْتَه ... وهُنّ لما يأخُذْن منك غوارم

١٣ - إذا كان ماتنويه «فعلامضارعا» ... «مضى» قبل أن تُلقَى عليه «الجوازم»

١٤ - وكيف يرجِّى الرومُ والروسُ هَدْمَها ... وذا الطَّعنُ آساسٌ لها ودعائم

١٥ - وقد حاكوها والمنايا حواكمٌ ... فما مات مظلومٌ ولا عاش ظالم

١٦ - أتوك يجرُّون الحديدَ كأنهم ... سَرَوْا بجيادٍ ما لَهُنّ قوائم

---

١٢ — تفيت : مضارع أفات ، وهو متعد لمفعولين ، يقال : فاته الأمر أى ذهب عنه ، وأفاته إياه غيره أى أذهبه عنه ، والمفعولان فى البيت هما الليالى وكل شىء . غوارم : جمع قياسى لغارمة — فاعلة من الغرم والغرامة : ما يلزم أداؤه ، وغالبا مايستعمل فى أداء الديون ، ويقال : فلان مغرم أى مثقل بالدين وعليه غرم ومغرم .

١٤ — آساس : وزان أفعال جمع أس (مثلثة) وأسس (مثال بطل) وأساس ، وهو أصل البناء وأصل كل شىء . دعائم : جمع دعامة ودعام (بكسر الأول) وهو فى الأصل السناد الذى يستمسك به البيت كى لا يميل . ومن المجاز : هو دعامة قومه ، لسيدهم وسندهم ، قال الأعشى : (كلا أبوينا كان فرعا دعامة) ، وأقمت دعائم الإسلام ، وهذا من دعائم الأمور أى مما تماسك به ، ودعمت فلانا أعنته وقويته ، وفلان ذو دعم أى ذو قوة .

١٥ — حاكوها : يقال : حاكمت فلانا إلى الحاكم دعوته إليه وخاصمته ، وحاكمته إلى الله أو إلى القرآن دعوته إلى حكمه ، ومثل هذا : حاكمته إلى القانون ، والمنايا حواكم : جمع حاكمة ، اسم الفاعلة من حكم ، والحكم القضاء ، والحاكم القاضى ومنفذ الحكم .

١٦ — سروا : من السرى وهو سير الليل ، ويقال فى فعله : سرى وأسرى واسترى . جياد : جمع جواد وهو الفرس ، وأصله وصف له فسمى به لأنه يطلب جيدا رائعا فى شكله وعدوه . قوائم : قوائم الدابة أرجلها ، والواحدة قائمة .

١٧ - إذا بَرَقُوا لم تُعرَفِ البيضُ منهمُ
ثيابُهـــمُ مِنْ مِثْلِهـــا والعمائم

١٨ - خميسٌ بشرق الأرض والغرب زَحْفُه
وفى أُذُن الجـــوزاء منهُ زمازم

١٩ - تجمَّعَ فيه كلُّ لِسْنٍ وأمةٍ فما تُفهِمُ الحُدّاثَ إلاّ التراجم

---

١٧ — برقوا : برقت السماء (من باب قعد) بروقا وبرقانا أى لمعت ، ومنه البرق ، وبرق الشىء برقا وبريقا وبرقانا أى لمع ، وبرق النجم أى طلع ، ومن المجاز : برقت المرأة وأبرقت تحسنت وازينت . (ومن باب قعد وفرح) : عمى تحير حتى لا يطرف أو دهش فلم يبصر .

البيض : هنا جمع أبيض وهو السيف وأصله وصف له . العمائم : جمع عمامة وهى مايلف على الرأس والمغفر والبيضة (أى الخوذة ـ وهى من الحديد) .

١٨ — خميس : الخميس الجيش ، وسمى خميسا لأنه خمس فرق : المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساقة . زحفه : مشيه ، والزحف المشى فيه ثقل وبطء . الجوزاء : أحد أبراج السماء ، وهى تتوسط السماء ، وتقع فيها الشمس فى أواخر الربيع . زمازم : أصوات مبهمة لا تفهم ، والرعد ذو زمازم ، قال الشاعر :

يهد بين السـحر والغلاصم هدا كهد الرعد ذى الزمازم

والزمزمة الصوت البعيد له دوى ، وصوت الأسد ، وصوت النار . وفى المثل (حول الصِّلِّيان الزمزمة) ، والصليان نبات يجمع الخيل التى لا تفارق الحى مخافة الغارة ، فهى تزمزم حوله وتحمحم .

١٩ — لسن : (بكسر فسكون) واللسن اللغة والكلام واللسان . أمة : الأمة (بالضم) من معانيها : الجنس ، والجيل من كل حى (كالأم) والإمام ، =

٢٠ - فَلِلّهِ وقتٌ ذَوَّبَ الغشَّ نارُهُ ... فلم يَبْقَ إلا صارمٌ أو ضُبَارِمِ

٢١ - تَقَطَّعَ ما لا يَقْطَعُ الدرعَ والقنا ... وفرَّ مِنَ الأبطالِ مَن لا يُصادمِ

٢٢ - وقفتَ وما الموتُ شكٌّ لواقفٍ ... كأنكَ في جَفْنِ الرَّدَى وهو نائمُ

= والرجل الجامع للخير ، وقوم الرجل . الحداث : جمع قياسى لحادث بمعنى متحدث . وفى أساس البلاغة : وهو من حداثه ، قال قيس :

أتيت مع الحداث ليلى فلم أبن ... فأخليت فاستعجمت عند خلائيا

التراجم : جمع ترجمان (بضم التاء والجيم أو فتحهما أو فتح وضم وهذه أجود) ، وهو المفسر للكلام واللغة . يقال : ترجم الرجل كلامه إذا بينه وأوضحه ، وترجم كلام غيره إذا عبر عنه بلغة غير لغة المتكلم . وقد اتفق اللغويون على أصالة الميم فى (ترجم) واختلفوا فى أصالة التاء أو زيادتها . راجع مادة (ترجم) فى القاموس المحيط ، ومادة (رجم) فى الصحاح وفى التهذيب .

٢٠ — ذوب : يقال : ذوبه وأذابه جعله يذوب أى يسيل ، والذوبان السيولة وهى ضد الجمود .

الغش (بالكسر) فى الأصل الغل والحقد والاسم من غش بمعنى أظهر له خلاف ما يضمر أو لم يمحضه النصح ، وبالضم : الرجل الغاش صارم : سيف قاطع ، ويطلق على الماضى الشجاع الأسد ، والجمع صوارم (وستأتى) . ضبارم (بضم ففتح) : الرجل الجرىء على الأعداء ، والأسد .

٢١ — روى (تقطع) ففاعله « ما » وروى (فقطع) ففاعله ضمير الوقت . الدرع : من الحديد (مؤنثة ومذكرا) : القميص من الحديد ينسج حلقا حلقا ويلبسه المحارب يصادم : يدافع . وثلاثيه (صدم) من باب ضرب . ويقال : صدمه وصادمه أى دفعه ، واصطدما وتصادما أى تدافعا .

٢٢ — الردى (مفردا) : الهلاك ـ وهو المقصود هنا . وجمعا : مفرده الرداة وهى الصخرة .

٢٣ ـ تمرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً ووجهُكَ وضـاحٌ وثغرُكَ باسم

٢٤ ـ تجاوزتَ مقدارَ الشجاعةِ والنُّهى إلى قول قومٍ : أنتَ بالغيب عالم

٢٥ ـ ضممتَ جناحيهم على القَلْبِ ضمةً تموتُ الخـــوافي تحتها والقوادم

٢٦ ـ بضربٍ أتى الهاماتِ والنصرُ غائبٌ
وصـــار إلى اللَّبّاتِ والنصرُ قادم

---

٢٣ — كلمى : جمع قياسي مفرده كليم مثل جرحى وجريح معنى وقياسا . هزيمة فعيلة بمعنى مفعولة ، وحق التاء الإسقاط ، والهزيمة الاسم من هزم الجيش العدو فهو هازم أي كسرهم .

وضاح : مبالغة من الوضوح ، والوضاح الأبيض اللون والنهار والرجل الحسن البسام ومن المجاز : له النسب الوضاح . ثغرك : يطلق الثغر على الفم أو الأسنان أو مقدمها وهو المراد هنا ، كما يطلق على موضع المخافة من مداخل البلاد وعلى ما يلي دار الحرب . باسم : فاعل من بسم ، والبسم أقل الضحك وأحسنه كالابتسام والتبسم ، ويسمى الثغر مبسما .

٢٤ — تجاوزت : تجاوز المكان وجاوزه وجازه وأجازه بمعنى قطعه ، وتجاوز الشيء وجاوزه تعداه . الشجاعة . صفة الشجاع وهو الشديد القلب عند البأس . النهى (مفردا) : العقل ، ويكون أيضا جمعا لنهية (بالضم) وهى العقل . الغيب : في الأصل كل ما غاب عنك

٢٥ — الجناحان : ميمنة الجيش وميسرته ، والقلب : فرقته المتوسطة . الخوافي : ريشات تخفى إذا ضم الطائر جناحيه وواحدتها خافية . القوادم : ريشات في مقدم الجناح وواحدتها قادمة .

٢٦ — الهامات (وكذلك الهام) : جمع هامة وهى في الأصل الرأس ورأس كل شيء ورئيس القوم ، ومن معانيها : الطائر المسمى « الصدى » وهو من طير الليل . اللبات : جمع لبّة وهى المنحر وموضع القلادة من الصدر ، ومن معاني اللبة : المرأة اللطيفة .

٢٧ - حقرْتَ الرُّدَيْنيَّاتِ حتى طرَحْتَها
وحتى كأنَّ السيفَ للرُّمحِ شاتم

٢٨ - ومَنْ طَلَبَ الفتحَ الجليلَ فإنما مفاتيحُه البيضُ الخِفافُ الصوارم

٢٩ - نثرتَهُم فوق «الأُحَيْدِب» نثرةً كما نُثِرَتْ فوقَ العروس الدراهم

٣٠ - تدُوسُ بك الخيلُ الوُكورَ على الذُّرا
وقد كثُرَتْ حولَ الوكورِ المطاعم

---

٢٧ — الردينيات : الرماح الردينيات منسوبة إلى امرأة تسمى (ردينة) كانت تصنعها هي وزوجها .

طرحتها : طرح الشيء رماه وأبعده ، ومثلة طرّحه واطّرحه

٢٨ — الجليل : العظيم والكبير ، ويسمى المسن جليلا . الخفاف : نعت للبيض وهي السيوف ، وهي جمع خفيف قياساً ، والسيف خفيف في يد السياف .

٢٩ — نثرتهم : نثر الشيء (من بابي كتب وضرب) نثرا ونثارا أي رماه متفرقا ، ومن باب جلس بمعنى عطس ، ويكون للدواب خاصة . الأحيدب : جبل في منطقة المعركة .

٣٠ — تدوس : داس فلان الأرض دوسا إذا شدد وطأه عليها بقدمه . الخيل : جماعة الأفراس ويسمى الفرس خائلا ؛ لأنه يختال وحينئذ يجمع على أخيال وخيول . الوكور : جمع وكر وهو عش الطائر وإن لم يكن فيه . الذرا : جمع ذروة (بالضم أو بالكسر) ، وذروة كل شيء أعلاه ، ومن المجاز : بلغ فلان الذرا أي أعالي النسب والشرف ، وفلان منيع الذرا شريف لا يطال فهو يحتمي به ، وأقبلت ذرا الإبل أي أوائله . المطاعم : جمع مطعم اسم مكان أو مصدر طعمه (وزان سمعه) طعما وطعاما أي أكله .

٣١ ـ تظنُّ فراخُ الفتْخِ أنَّك زُرتها ‍ ‍ بأمَّاتها وهى العِتاقُ الصَّلادم

٣٢ ـ إذا زَلِقتْ مَشَّيتَها ببطونها ‍ ‍ كما تتَمَشَّى فى الصَّعيدِ الأراقم

٣٣ ـ أفى كل يوم ذا « الدُّمُسْتُقُ » مُقدِمٌ ‍ ‍ قفَاهُ على الأَقْدام للوجـــهِ لائم

---

٣١ — فراخ : جمع فرخ ، وهو ولد الطائر ، ويطلق على كل صغير من الحيوان أو النبات ، كما يطلق على الرجل الذليل المطروه لضعفه وعجزه ، وعلى الزرع المتهيُّ للتفتح ، وعلى مقدم الدماغ . الفتخ : جمع فتخاء ، وهى العقاب اللينة الجناح . أمّاتها : أمهاتها . يقال للأم : الأمة والأمهة والجمع أمات وأمهات . وقد قيل : إن أمهات هى الأصل ، ومن رأى « ابن جنى » أن الهاء زائدة والأصل عنده أمات .

العتاق : من الخيل النجائب ومن الطير الجوارح وواحدها عتيق . الصلادم : جمع صلدم (بكسر فسكون فكسر) وهو الصلب والشديد الحافر ، ويطلق أيضا على الأسد .

٣٢ — زلقت : يقال زلقت القدم (من باب تعب) لم تثبت حتى سقطت . مشيّتها : يقال مشى يمشى مشيا ومشّى تمشية وتمشى تمشيا بمعنى مَرَّ . الصعيد : وجه الأرض ترابا كان أو غيره ، ويطلق على التراب ـ ومنه قوله تعالى : « فتيمموا صعيدا طيبا » ـ كما يطلق على القبر . الأراقم : جمع أرقم وهو أخبث الحيات وأطلبها للناس أو ما فيه سواد وبياض منها أو هو ذكر الحيات (وتسمى الأنثى رقشاء) . ويقال فى التشبيه : كأنه أرقم يتلمظ .

٣٣ — الدمستق قائد جيش الروم واسمه « فردس » ـ انظر يتيمة الدهر للثعالبى ١/٢٨ ـ مقدم : اسم الفاعل من أقدم ، تقول : أقدم على الأمر وأقدم فى الحرب أى شجع . لائم : اسم الفاعل من لام لوما وملاما وملامة ، واللوم العذل .

٣٤ـ أينكر ريحَ الليث حتى يذوقه   وقد عرفتْ ريحَ الليوثِ البهائم

٣٥ـ وقد فجعْته بابنهِ وابنِ صهره   وبالصِّهرِ حَملاتُ الأميرِ الغواشم

٣٦ـ مضى يَشْكرُ الأصحابَ فى فَوْتِهِ الظُّبَا   بمــا شَغَلَتْها هامُهُمْ والمَعــاصم

---

٣٤ — ريح : هنا بمعنى الرائحة ، ومن معانى الريح الهواء بين السماء والأرض ، والغلبة ، والرحة ، ومن المجاز : ذهبت ريحهم أى دولتهم ، والريح مؤنثة والياء قلب عن الواو بدليل تصغيرها على (رويحة) ، وقد تذكر على معنى الهواء ، وقال ابن الأنبارى : الريح مؤنثة وكذلك سائر أسمائها ماعدا الإعصار فإنه مذكر . الليث : الأسد ويطلق أيضا على اللسن البليغ وعلى ضرب من العناكب يصيد الذباب .

يذوقه : يختبر طعمه . ومن المجاز : ماذاق غمضا/ماذاق نوما /ذاق طعم الفراق/ ذاق القوس تعرفها مختبرا لينها من شدتها / ذاقت كفى فلانة أى مستها. البهائم: جمع بهيمة وهى كل ذات أربع قوائم على الأرض أو فى الماء ، أو كل حى لا يميز .

٣٥ — فجعته : فجعه (كمنعه) أوجعه ، أو الفجع أن يوجع الإنسان بما يعز عليه أو برزأ فيه . الصهر (بالكسر) : القرابة ، ويسمى صهراً زوج بنت الرجل وزوج أخته وكل الأختان ، ويقال : صاهرهم وفيهم وإليهم وأصهر بهم وإليهم أى صار فيهم صهرا . حملات : جمع حملة وهى الكرة فى الحرب ، وأسكن عين الجمع لإقامة الوزن . الأمير : صاحب الأمر ووليه ، صفة من أمر (من باب قعد) . الغواشم : جمع قياسى لغاشمة ، والغاشمة الحرب كالغشوم من باب المجاز ، وأصل غشم بمعنى ظلم .

٣٦ — فوته : مصدر فات . يقال : فاته الأمر فوتا وفواتا ذهب عنه ، وفاته سبقه ، وفاته بكذا سبقه به ، وهو فوت رمحه وفوت يده أى بحيث يراه ولا يصل إليه . الظبا (واوى) : جمع ظبة (مثال ثبة) : حد السيف أو السنان ونحوه . المعاصم : جمع معصم وهو اليد وموضع السوار .

٣٧ ـ ويفهم صوتَ المشرفيةِ فيهمُ على أنّ أصواتَ السيوفِ أعاجم

٣٨ ـ يُسَرُّ بما أعطاكَ لا عَنْ جَهالةٍ ولـكنْ مغنوماً نَجَا منكَ غانم

٣٩ ـ ولستَ مليـكا هازماً لِنظيره ولـكنّك التوحيدُ لِلشِّرْكِ هازم

٤٠ ـ تَشَرّفُ « عدنانُ » به لا « ربيعةُ »

وتفتخرُ الدنيـا به لا العـواصم

---

٣٧ ـ المشرفية : صفة للسيوف . وفى القاموس المحيط : مشارف الشأم قرى من أرض العرب تدنو من الريف ومنها السيوف المشرفية بفتح الراء ، وفى غيره أن السيوف المشرفية نسبة إلى موضع فى اليمن . وفى رأينا أن صاحب القاموس المحيط لم يخطئ ، فقد أقام فى اليمن نحوا من عشرين عاما . أعاجم : جمع أعجم وهو عند العرب غيرهم ، ومن لا يفصح كالأعجمى ، والأخرس .

٣٨ — يسر : مضارع مبنى للمفعول من السرور وهو الفرح . جهالة : الجهالة والجهل ضد العلم ، وفعله من باب سمع . مغنوم وغانم : مفعول وفاعل من غنمه : أصابه غنيمة وفاز به بلا مشقة . نجا : خلص .

٣٩ — نظير : مثيل وشبيه ، وناظره صار نظيرا له ، وناظره بغيره جعله نظيره . التوحيد : يقصد به (الإسلام) ، والإسلام دين التوحيد ، الشرك : يقصد به (الـكفر) .

٤٠ — تشرف : مضارع أصله تتشرف ، وحذف تاء المضارعة كثير ، من تشرف بالشىء بمعنى شرف به أى فخر به وفضل . عدنان : أبو معد الجد الأعلى لقريش . ربيعة : هو ابن نزار بن معد بن عدنان ، وإلى ربيعة ينتسب سيف الدولة . تفتخر : من الافتخار وهو التمدح بالخصال كالفخر . الدنيا : فُعلى من دنا وهى نقيض الآخرة ، وإذا نـكرت جاز صرفها .

العواصم : جمع عاصمة وهى المدينة ، والعواصم قلاع وحصون من أعمال حلب حيث إمارة سيف الدولة .

٤١ - لكَ الحمدُ في الدُّرِّ الذي لِيَ لَفْظُه فإنّكَ مُعطيــــهِ وإنّيَ نَاظم

٤٢ - وإنّي لتعدُو بِي عَطَايَاكَ في الوَغَى فلا أنا مذمومٌ ولا أنت نادم

٤٣ - عَلَى كل طيارٍ إليها بِرِجْلِه إذا وقعتْ في مسمعيه الغماغم

---

٤١ — الحمد : الشكر والثناء والرضا والجزاء وقضاء الحق . وقد يقال : إن الحمد غير الشكر ، فالحمد يقتضى تعظيم الممدوح وخضوع المادح ويكون فى مقابلة الإحسان ، والشكر لا يكون إلا فى مقابلة الصنيع .

الدر : جمع درة وهى اللؤلؤة العظيمة ، ويشبه بها الشعر ، وقد يكون الدر مفردا بمعنى النفس .

٤٢ — تعدو : من العدو وهو المشى قريبا من الهرولة ودون الجرى فهو يستدعى الإسراع ، وهذا بيان من شرح تعدو بمعنى تسرع . عطاياك : العطايا جمع عطية وهى ما تعطيه فعيلة من العطا والعطاء وهو النوال السمح . الوغى (وزان الفتى) : الجلبة والأصوات ، ومنه وغى الحرب . وقال ابن جنى : الوعى (بالمهملة) الصوت والجلبة ، و (بالمعجمة) الحرب نفسها . نادم : اسم الفاعل من ندم بمعنى أسف وحزن أو فعل شيئا ثم كرهه فهو نادم وندمان .

٤٣ — طيار : مبالغة فى الطائر ، ويقصد به الفرس السريع الجرى ، ويقال : فرس طيار : ماض حديد الفؤاد . مسمعيه : مثنى مسمع (وزان مقعد) ، وللانسان مسمعان كلاهما من أذن . الغماغم : جمع غمغمة وهى أصوات الأبطال عند القتال ، وأصوات الثورة عند الذعر ، والكلام الذى لا يبين .

٤٤ ـ ألاَ أيها السيفُ الذى لستَ مُغْمَداً
ولا فيكَ مرتابٌ ولا منـــكَ عاصم

٤٥ ـ هنيئاً لضربِ الهامِ والمجدِ والعُلا
وراجيكَ والإسـلامِ أنَّكَ سالم

٤٦ ـ ولِمْ لايَقى الرحمنُ حَدَّيْك ماوَقَى
وتقْليقهُ هامَ العِـــدَا بِكَ دائم

---

٤٤ — مغمد : الغمد (بالكسر) جفن السيف ، وسيف مغمد ومغمود موضوع فى غمده أو مجمول له غمدا .

مرتاب : اسم فاعل من ارتاب بمعنى شك ، وارتاب به اتهمه ، والاسم الريبة . عاصم : اسم فاعل من عصم بمعنى منع ووقى .

٤٥ — هنيئا : أصل الهنىء ما أتاك يسيرا بلا مشقة ولا عناء ، وطعام هنىء : سائغ ولذيذ . المجد : العز والشرف وصاحبه ماجد ومجيد . العلا (بالضم) جمع عليا مثل كبرى وكبر . والعليا فى الأصل خلاف السفلى ، والعلاء (كسماء) الرفعة . واجيك : الذى يرجوك اسم الفاعل من الرجاء وهو التأميل والإرادة وضد اليأس . سالم : اسم فاعل من السلامة وهى فى الأصل البراءة من العيوب .

٤٦ — لم : استفهام ، والميم ساكنة للوزن . وقى يقى : حفظ وصان ـ فعل متعد من باب ضرب . تقليقه : من القلق وهو الاضطراب والانزعاج . العدا (كإلى) : المتباعدون والغرباء كالأعداء ، والواحد (عدو) ، ويستعمل العدو للواحد والجمع والذكر والأنثى ، وقيل يثنى ويجمع ويؤنث . دائم : اسم فاعل من الدوام بمعنى الثبات ، وهو يتطلب الاستمرار والبقاء وعدم الانقطاع .

الجو العام للنص :

عندما انقطع المتنبي لسيف الدولة الحمداني ، من سنة ٣٢٧هـ إلى سنة ٣٤٥ هـ ، كانت عطاياه داعية لاسترسال المتنبي في مديحه ، وكان سيف الدولة قد تفرغ لحرب الروم ، حتى يقـال : إنه غزاهم أربعين غزوة ، انتصر فيها إلا في واحدة منها .

وكان يصحبه شاعره المتنبي ، وقد عرفناه فارسا شجاعا ، فكان في شهوده المعارك ، واشتراكه في الوقائع ، ورؤيته أميره وصاحب نعمته محاربا مغامرا ؛ إفراغ لشاعريته ، ومدد لموضوع المديح .

وهذا النص واحد من السيفيات — أي أشعار المتنبي في سيف الدولة — التي شغلت نحواً من ثلث ديوان المتنبي . ومناسبتها : أن سيف الدولة سار إلى ثغر « الحدث » في بلاد الروم ، لاسترداده من « الدمستق » قائد جيش الروم ، الذي استولى على الثغر دون حرب ، وأوقع فيه الفتنة ، وأراد أن يفتن أهله عن دينهم ، وقامت بين الروم والمسلمين وقعة عظيمة ، اشتد فيها الخطب ، وساءت ظنون المسلمين ، لولا شجاعة سيف الدولة وصبره ، مكنته من الحملة على صفوف الروم حملة مباغتة ، فقتل منهم خلقا كثيراً ، ودفع « الدمستق » إلى الهرب ، وأسر سيف الدولة صهر « الدمستق » وابن بنته ، ثم أقام سيف الدولة زمنا ، يشرف على بناء « الحدث » ، وعند اكتمال البناء نصب حفلا لذلك ، أنشده فيه الشعراء مدائحهم ، وفي هذا اليوم أنشد المتنبي قصيدته ، يسجل فيها أحداث المعركة ، ويعلي — كعادته — من شأن ممدوحه ، وما أبداه من ضروب البسالة والنضال المقدس(١) .

---

(١) انظر يتيمة الدهر للثعالبي بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ٢٨/١ وما بعدها ط . محمود توفيق ١٣٦٦هـ — ١٩٤٧م .

جزئيات النص :

(١ ـ ٦) : تقدمة عن أقدار الناس ، وما يكافئها من عزائم ومكارم ، فذوو الهمم العوالى والعزائم المواضى ـ أمثال سيف الدولة ـ تصغر فى أعينهم كبار الأمور وعظائمها ، لأن طموحهم متسع الآفاق ، بعيد الآماد ، يهون معه كل صعب ، وتلين كل مخاطرة ، وذوو الصغار ضعاف الهمم ، ولذا تكبر فى أعينهم توافه الأمور وصغارها ، لأن آمالهم لا تمتد بهم إلى أكثر من مكانهم . وهذا سيف الدولة ، بطل الأمة المغوار يكلف جيشه العظيم ما تعجز عنه الجيوش الكثر ؛ يكلفه أن يغير ، ويغزو ، ويفتح البلاد ، ليحقق ما تطمح إليه همته ، وليحافظ على مجد الدولة الإسلامية ، ويصون أطرافها ، ويحمى حدودها ، وهو ـ لما ركب فى طبعه من إيثار ـ يطلب أن يكون الناس نظائره فى الإقدام والبأس ، وذلك أمر يندر أن يخطر فى بال الشجعان الصناديد ، ولقد بلغ سيف الدولة وجيشه من الشجاعة والبسالة حدا يجعل أحداث الدهور وقشاعمها تفدى سلاحه ؛ لأنه يكفيها المؤنة ، فما يضرها أن تخلق ـ أو لو خلقت ـ بغير مخالب ، فقد ضمن سلاح الجيش رزقها رغدا ، حيثما حل .

(٧ ـ ١١) : حديث عن « الحدث » التى جاءها سيف الدولة فى أوان المطر ، وكانت السحائب البيض ذوات البرق قد أمطرتها ، قبل نزول سيف الدولة ، فلما دهمها أعمل جيشه فى الروم قتلا وسفكا وذبحا ، فسالت دماؤهم فى ربوعها ، فما تدرى لاضطرابها بأى اللونين سقيت . وشمر سيف الدولة فى الحال عن ساعد العمل ، فأخذ يبنيها ، والقتال قائم ، وموج المنايا حول « الحدث » متلاطم ، وكان الروم قد أشعلوا فيها نار الفتنة ، وأرادوا أن يصرفوا أهلها عن دينهم ، وأشاعوا فيها الخراب والهدم ، قبل مقدم سيف الدولة ، فلما أسال جيشه دماءهم ، ونشر فى أنحائها جثث قتلاهم ؛ سكنت « الحدث » ، وكانت هذه الجثث بمثابة التمائم ، التى أسهمت فى سكون الفتنة ، وساعدت فى عودتها إلى حظيرة الإسلام ، بقوة السلاح ، على الرغم من الدهر .

(١٢ — ١٣) تحية من الشاعر لسيف الدولة ، بذكر مقدرته على عصى الأمر أمام الليالى ، فسيف الدولة أقدر عليها ، فهو يسلبها ، وهى لا تستطيع أن تسلبه ، وهو يبدد كل شىء يأخذه منها ، وهى دائما تدين لقدرته وفضله ، فتغرم ما يديها به . وقد بلغ من مقدرة سيف الدولة أنه إذا نوى شيئا أنفذه وأنجزه وعجل به ، قبل أن تحول القيود دون إنفاذه ، أو تعترض سبيل إنجازه .

وجاءت هذه التحية أشبه بالجملة الاعتراضية ، وسط الحديث عن « الحدث » .

(١٤ — ١٩) : عودة إلى « الحدث » بالإنكار على الروم — ومن إليهم من أجناس الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) كالروس والألبان والصقالبة وغيرهم — أن يؤملوا هدم « الحدث » ، بينما غارة سيف الدولة ، وما أعمله فيهم من ضرب وطعان ، دعامات تردها إلى الإسلام ، بعد أن كادت تعصف بها فتنتهم ، وكان قد بان من أحوال الروم ومن إليهم أنهم حين أرادوا تخريب « الحدث » ؛ ليقطعوا على المسلمين أمل العودة إليها ، فكأنما كانت خصما يحاكمونه إلى المنايا ، فقضت المنايا للحدث المظلومة بأن تعيش ، وعلى هؤلاء الظلمة أن يلقوا جزاء ظلمهم : المصير الذى أرادوه للحدث ولأهلها .

وقد كان جيش الروم ، ذو الفرق الخمس ، كثيفا ، ذا عتاد ضخم ، وعدد كثير ، من كل جنس .

(٢٠ — ٣٢) : يقول المتنبى فى المعركة نفسها : كانت مناط الاختبار ، فأفنت السلاح والناس ، ولم يثبت ويبق إلا كل صارم بتار ، يقطع الدروع والرماح ، وكل رجل شجاع ضبارم ، بينما يقف سيف الدولة فى حلبة الوغى محاربا باسلا ، وقفة لا يهاب فيها الردى ، ولا يبالى ، يشهد فى سرور هزيمة أعدائه ، وهم يلعقون جراحهم ، بل إنه ليجاوز هذه الجرأة وهذا الثبات إلى ما قيل : إنه — أى سيف الدولة — مطلع على الغيب ، عالم بنتيجة المعركة التى يخوضها .

ولقد كان من بطولة الممدوح أن ضم جناحى جيش عدوه على قلبه ، فى سرعة خاطفة ، وعدته فى ذلك السيوف الخفاف الصوارم ؛ عدة من يطلب الفتح الجليل ، فأطاح رءوسهم ، وفرق أشلاءهم ، فوق جبل «الأحيدب» قريبا من «الحدث» مطعما للطير الجائع ، وساق خيله فوق الجبل كل مساق .

(٣٣ — ٣٨) : يتحدث الشاعر على « الدمستق » قائد جيش الروم ، ويذكر النحس الذى يلازمه فى معاركه أمام سيف الدولة ، ويتهكم به ، ويسخر منه ، وقد ذاق مرارة الهزيمة ، وفجع فى ابنه وصهره ، إذ يجعله شاكرا ما أنعم به أصحابه عليه ، حين دافعوا دونه ، وشغلوا جيش سيف الدولة عنه ، وقدموا رءوسهم وأياديهم وغيرها غنائم لجيش المسلمين ، وغنم « الدمستق » بنجاته روحه .

(٣٩ — ٤٠) : مدح وتهنئة لسيف الدولة ، وفى هذا يذكر الشاعر عدة أمور :

(ا) انتصار سيف الدولة لدين الإسلام ، وهزمه للكفر .

(ب) انتصاره انتصارا يشرف العرب كلهم ، وتفخر به الدنيا كلها .

(ح) فضله على الشاعر بما يأتى من عظائم الأمور ، تكون مددا لمعانى شعره .

(ى) جوده وكرمه ، بما يمنح من عطايا وهبات ، لا يفتأ يمنحها حتى فى ساعات الشدة التى قد تنسى الكريم كرمه .

(ه) تهنئة لسيف الدولة المسلول الماضى اليقظ بسلامته ، وتهنئة للنصر والمجد والعلا والإسلام ومن يرجون بهذه السلامة .

(و) دعاء وابتهال إلى الله أن يقى سيف الدولة ويصونه دائما ، بمقدار ما ينتصر للاسلام ، ويقلق أعداءه .

أهم الصور :

١ — يصور الشاعر سيف الدولة فى أكثر من صورة :

يصوره كبير الهمة ، عالى القدر ، يطمح إلى مايكافئه قدرا ، فهو يلزم جيشه تحقيق أبعاد همته .

٢ — ويصوره بالغا الغاية من الشجاعة ، إذ يطلب أن يكون للناس مثل شجاعته . ويعقب على ذلك بأنه أمر لا تدعيه الضراغم — على الحقيقة أو التشبيه ، كما تريد .

٣ — ويصوره كذلك ، بضمانه رزق النسور والعقبان . وفيما يتصل بالنسور يذى — أو يذكر — حاجة أحداثها وقشاعمها إلى المخالب ، وفى كليهما ضعف .

وفيما يتصل بالعقبان يحمل الشاعر فراخها فرحة زيارة الخيل ، يحسبانها أماتها ، فالفراخ تتلقى الخيل فى سرور وغبطة وبهجة .

٤ — ويصوره بطلا مقداما غير هيابة ، لا يرهب الموت فى أنكر مواضعه . وفى هذا يتخيله مرة واقفا فى جفن الردى والردى نائم ، وسيف الدولة يشاهد انتصاراته وهزيمة الجموع وكلومهم . ومرة يسرع إلى ضرب عدوه فيمزقهم كل ممزق ، ويضم جناحى جيشهم على قوته وكثرة عدده . ومرة يفرق أشلاءهم وينثرها مبتهجا بنثرها ، كما ينثر أهل العروس فوقها دراهمهم ابتهاجا بزفافها .

٥ — ويصوره — فى مبالغة — نافذ الأمر على الزمان . ويتخيل فى ذلك سيف الدولة يسلب الليالى كل شىء ولا يرده ، بينما إذا أخذت منه الليالى شيئا كانت مدينة له به ، فهى ملزمة أن تغرم دينها .

٦ — ويصور قلعة (الحدث) حمراء ، من كثرة ما أسيل فيها من دماء القتلى .

٧ — ويصورها مجنونة من الفتن التى شبها الروم فيها ، قبل أن يأتيها سيف الدولة ، الذى أعاد إليها سكونها وهدوءها ، وقد تخيله أزرا العلاج الذى عالجها به ، وهو مثيل التمائم : رءوس القتلى التى علقت على أبوابها .

٨ — ويصورها قد أفادت من طعان سيف الدولة وجنوده تشييداً وتدعيماً ، فكان طعانهم أشبه بالآساس والدعائم التي يقوم عليها البناء ، ويتقوى بها .

٩ — يصور الشاعر قائد جيش الروم (الدمستق) مهزوماً ، تلازمه الهزيمة ، فيتخيله فاراً ، يلوم قفاه وجهه على إقدامه السالف ، ولا يعتبر بما لقيه هو وأهله من هزائم ، وبما لمس من بطولة سيف الدولة وشجاعته وبأسه ، وكأن الدمستق ينكر ريح هذه البطولة وما إليها حتى يذوقها . فإذا ذاقها شغل بالهرب ، تاركاً أصحابه يلقون مصيرهم ، ويبالون شكره على نجاته ببدنه .

١٠ — يصور الشاعر نفسه ناظم شعر — شبهه بالدر — يعده سيف الدولة بمعانيه .

النقد :

١ ــ تحررت القصيدة من مطلع الغزل ، إذ بدأها الشاعر بحكم ، منتزعة من الجو الذي دعاه إلى المديح . وقد خلت مطالع القصائد التي مدح بها المتنبي سيف الدولة من الغزل ، ومنها قصيدة العتاب المشهورة :

أما . ما لسيف الدولة اليوم عاتباً فداه الورى أمضى السيوف مضاربا

فمطلعها ـ كما ترى ـ مدخل مباشر للعتاب . ومن قصائد المديح التي خلت مطالعها من الغزل قصيدته في مدح عضد الدولة ، التي أجاد فيها وصف « شعب بوان » ، وإن لم يطل :

مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان

والراجح أن المتنبي اجتاز الشعب إلى « شيراز » حيث الممدوح ، فأغراه الشعب بوصفه .

على أن لمدائح المتنبي مطالع غزلية . منها من السيفيات :

ـ ليالي بعد الظاعنين شكول طوال ، وليل العاشقين طويل

ـ ذكر الصبا ومراتع الآرام جلبت حمامي قبل وقت حمامي

ومن غير السيفيات :

— أيا خـــدد الله ورد الخدود   وقد قدود الحسان القدود

(فى مدح أبى لؤلؤ أمير حمص ، واستعطافه)

— باد هواك ، صبرت أم لم تصبرا ،   وبكاك ، إن لم يجر دمعك أو جرى

(فى مدح ابن العميد)

— هذى ؛ برزت لنا ، فهجت رسيسا ،   ثم انثنيت ، وما شفيت نسيسا

(فى مدح محمد بن زريق الطرسوسى)

ونحن نقدر أن الشعراء العرب كانوا يبدءون قصائدهم بالغزل ؛ ليستدعوا — كما يقول ابن قتيبة (١) الإصغاء إليهم ، وليمهدوا النفوس لاستقبال ما ينشدون من المديح ، وليرققوا الإحساس ويشوقوه إلى ما يأتى ، فذلك فى نظرهم يوجب على الممدوح حق الرجاء ، وحرمة التأميل ، ويبعث على السماح .

أما شاعرنا فقد عدل عن ذلك أحيانا ؛ لأن سيف الدولة الممدوح مستعد لتقبل مدحه ، ومهيأ بمثل ما يقيمه من حفلات انتصاره على عدوه ، لسماع ما ينشده فيه الشعراء مديحا وتهنئة . وليس سيف الدولة بحاجة إذن إلى من يرقق إحساسه ، ويشوقه ، وخاصة إذا كان المتنبى منشده . كذلك كان سيف الدولة « الشاعر » لديه استجابة طبيعية لكل شعر جيد . وهو سمح بطبعه قد أغرق شعراءه بهباته وعطاياه ، وعلى رأسهم المتنبى .

٢ — معظم قصائد المتنبى يحتفظ بمستواه من القوة اللفظية ، من البداية إلى النهاية .

وهذه القصيدة من هذا النمط ، فألفاظها قد أحوجتنا إلى مراجعة المعجم .

وإذا كان المتنبى له من ثقافته اللغوية ما يسمح له باستخدام مفرداته ، التى اطلعنا فى القصيدة على كثير منها ، حتى إنه — فى مواطن أخر — قد يوردها مماطلا بها — فإننا نرى أن هذه المفردات كانت يسيرة على قائلها ، ولا تحوج سامعيها إلى

(١) الشعر والشعراء . ط . المعارف — ١٩٦٦ ج ١ ص . ص ٧٥

التوقف ، فى سبيل التماس النظائر من المعانى ، أو الشروح ، وبخاصة إذا كان هؤلاء السامعون من أمثال سيف الدولة أمير حلب ، العربى الصميم ، وحاشيته . وهذا يدل أوضح دلالة على أن اللغة تحيا بالاستعمال ، وتندثر بالإهمال .

٣ — ومن الناحية الفكرية تأتى القصيدة صادقة فى التعبير عن فكرة الشاعر ، والتى أوحى بها هذا الجو الحربى ، الذى انخرط فيه الشاعر : كرفيق لولى نعمته سيف الدولة ، وكعربى يعتز بعروبته ، ويحس بغضه للأعاجم ، ويرى فى حروب سيف الدولة رفعة لدولة الاسلام ، وخفضا لدولة الشرك ، وكشيعى يخلع على سيف الدولة صفة العلم بالغيب ، وكفارس يتعطش إلى الضرب ، ويتلذذ برؤية الدماء ، وأشلاء الأعداء .

فهذا ولى نعمته — على طول القصيدة — بطل مغوار ، ولا كالأبطال ، ولكن المتنبى لا ينسى عطاياه ، وهى عطايا لا يقطعها عنه الممدوح ، حتى فى الموقف الذى ينسى ذكرها :

وإنى لتعدو بى عطاياك فى الوغى ... فلا أنا مذموم ، ولا أنت نادم

فهذه العطايا تجرى إلى الشاعر وتسرع ، فلا هو مذموم فى أخذها ، لأنه يحمدها ، على نحو ما قرر فى البيت السالف :

لك الحمد فى الدر الذى لى لفظه ... فإنك معطيه وإنى ناظم

وفيه أيضا يقر بأن الممدوح غير نادم على ما أعطى ؛ لأنه واثق أن شاعره يقوم بحق النعمة عليه .

وها هو ذا المتنبى — كعربى — يهزأ بالدمستق ، وينكر عليه عدم اعتباره بهزائمه وبخائبه ، ثم ينكر عليه أن يكون نظيرا لسيف الدولة فى الملك ، فإنما هو — أى الدمستق — يمثل الشرك ، وانتصار سيف الدولة عليه انتصار للتوحيد أى الإسلام على الشرك ، وليس انتصار ملك على ملك :

ولست مليكا هازما لنظيره ... ولكنك التوحيد للشرك هازم

ومن قبل رأى المتنبي في (الحدث) مثل الجلمون ، فأصبحت سالمة ناجية على يدى سيف الدولة ، مردودة على الدين الحق ، رغم أنف الدهر :

طريدة دهر ساقها ، فرددتها على الدين بالخطى ، والدهر راغم

والمتنبي — فيما يقال — كان متشيعا ، وسيف الدولة من العلويين ، ولهذا لا يجد الشاعر غضاضة في وصف أميره بعلم الغيب :

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى إلى قول قوم : أنت بالغيب عالم

فهذه العصبية المذهبية هي داعية المتنبي إلى الغلو في مدح سيف الدولة ، ونسبته — بعد أن جاوز به مقدار الشجاعة والعقل — إلى علم الغيب ومعرفته ، وهي فكرة شيعية مسرفة ، نسبها بعض غلاة الشيعة إلى « على » ، ثم جاء من خلعها على أبنائه أو أولياء الأمر من العلويين من بعده[1] .

والمتنبي من المولعين بالإفراط في المبالغة ، والخروج فيه إلى الإحالة ، كما رأينا ، ومثل ذلك قوله : [2]

— وأعجب منك كيف قدرت تنشا وقد أعطيت في المهد الكمالا

وأقسم لو صلحت يمين شيء لما صلح العباد له شمالا

— يامن نلوذ من الزمان بظله أبدا ، ونطرد باسمه إبليسا

— وأنك رعت الدهر فيها وريبه فان شك فليحدث بساحتها خطبا

أما تعطش المتنبي إلى رؤية ما تنجلي عنه المعارك من دماء وأشلاء ، ففي مواضع من القصيدة : ففي البيتين السابع والثامن يسيل دماء القتلى بحيث تتغير لون (الحدث) وتحيلها « حمراء » ، لكثرة ماجرت الدماء فيها ، فاختلطت بماء السماء وغطت جوانبها . وفي البيت التاسع يجعل المنايا بحرا زاخرا ، له موج يتلاطم حول القلعة . وفي البيت العاشر يجد الراحة في تعليق جثث القتلى كموذات

---

(١) راجع مقدمة كتاب (أدب الشيعة) لعبد الحسيب طه حميدة . الطبعة الأولى (١٩٥٦) ، والطبعة الثانية (١٩٦٨) . مطبعة السعادة بمصر .

(٢) وانظر يتيمة الدهر للثعالبي تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ١٦٤/١ وما بعدها .

وغنائم ، تسكن النفوس ، وتهدئ الثائرات . وفى البيت الخامس عشر يختصم إلى القنا ؛ لتحكم بين الروم و (الحدث) ، وفى البيت التاسع والعشرين يحتفل بنثر أشلاء الروم على جبل (الأحيدب) ملتذا بذلك التذاذ أهل العروس بنثر الدراهم من فوق رأسها فى حفل زفافها .

٤ — وجاءت حكم المتنبى فى هذه القصيدة كسائر حكمه فى أشعاره ، حكما « مستبطنة » بمعنى أنها لا تصدر عن المنطق وحده ، وإنما تصدر عن منطق صقلته التجربة البشرية ، فهو يحاول أن يلاحظ النفس الانسانية فى ظواهرها وأسرارها ، ويعرض ملاحظاته على عقله اللماح ، فيخرج لنا نتاجا من الشعور والمنطق ، وهذا هو سر اطمئناننا وجدانيا وفكريا إلى تلك الحكم ، وكأننا نجد فيها تجاربنا ، أو نطل منها عليها ، وهذا باب ولج منه المتنبى إلى الشهرة والخلود الأدبى .

تقرأ مطلع القصيدة فما تلبث إلا أن تسلم بتفاوت أقدار الكرام وذوى العزم ، وتفاوت إراداتهم بقدر ما يطمحون إليه وينهضون به ، وتسلم بأن ضعاف الهمة يصادفون الصغير عظيما ، وكبار الهمة يصادفون العظيم صغيرا ؛ لأن الأولين قد صغرت أقدارهم ، فهم يقنعون بقليل ، والآخرين قد اتسعت مراميهم ، فهم ينشدون المجد ذا سعة .

ونقرأ قوله :

ومن طلب الفتح الجليل فإنما مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

فهو يعطيك مثالا لما ينبغى أن يكون عليه طالب المعالى ، فأداته إليها يجب أن تكون كفيلة بتحقيق مراميه . وهذا سيف الدولة طلب الفتح الجليل فكانت أدواته السيوف المرهفات القواطع ، وكانت — فى وقته — أعظم آلات الحرب والقتال .

٥ - نعرف المتنبى مترفعا متعاليا ، تعلو دائما فى شعره نغمة اعتداده بنفسه وطموحه ، ومغالبته للزمان والأقدار . تقرأ ذلك فى شعره بعامة :

فنى العتب ، وهو مما يستوجب الترفق ، يقول :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا ... بأننى خير من تسعى به قدم

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم

أنام ملء جفونى عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصم

ويقول فى مدح كافور :

وفى الناس من يرضى بميسور عيشه ... ومركوبه رجلاه والثوب جلده

ولكن قلبا بين جنبى ما له ... مدى ينتهى بى فى مراد أحده

يرى جسمه يكسى شفوفا تربه ... فيختار أن يكسى دروعا تهده

ويقول فى مواطن أخر :

- أريد من زمنى ذا أن يبلغنى ... ما ليس يبلغه فى نفسه الزمن

- إذا غامرت فى شرف مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت فى أمر حقير ... كطعم الموت فى أمر عظيم

- وما الدهر إلا من رواة قصائدى ... إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مشمرا ... وغنى به من لا يغنى مغردا

أجزنى إذا أنشدت شعرا ؛ فإنما ... بشعرى أتاك المادحون مرددا

ودع كل صوت غير صوتى ؛ فإننى ... أنا الطائر المحكى والآخر الصدى

ولكن هذه النغمة غير واضحة فى قصيدتنا ، فليس له فيها من حديث عن نفسه إلا فى الأبيات الثلاثة (٤١ — ٤٢ — ٤٣) : لك الحمد فى الدر الذى لى لفظه ... الأبيات وهو حديث لا نشم فيه رائحة التعالى ، بل قد نرى فيه اعترافا منه بفضل الممدوح ، الذى يلهم شاعرنا شعره ، ويجود عليه بالعطايا فى الوغى غير نادم على أن يهب له ذلك الفرس الطيار . وقد يريد الشاعر أنه — أى المتنبى — يقصد الوغى على كل فرس يطير إلى الوغى إذا بلغ مسمعيه صوت الأبطال فى الحرب ، فنى قوله إذن إشارة إلى شجاعته ، وهى إشارة يسوقها فى غير تكبر وخيلاء .

وهذا مما يتطلبه أدب المديح ومراعاة أحوال الممدوح[1]. وقد يمثل هذا المطلب الوجه الآخر الذى يقابل خيلاء المتنبى ، وإدلاله بامتيازه وفضله . ومما يتكافأ مع هذا الأدب كثير من شعر المتنبى ، نذكر منه على سبيل المثال :

- حنانيك مسئولا . ولبيك داعيا　　　وحسبى موهوبا ، وحسبك واهبا
- إذا سأل الإنسان أيامه الغنى　　　وكنت على بعد — جعلتك موعدا
- يا من يقتل من أراد بسيفه ؛　　　أصبحت من قتلاك بالإحسان
- يأيها المحسن المشكور من جهتى　　　والشكر من قبل الإحسان ، لا قبلى

أنت الجواد ؛ بلا من ، ولا كدر ،　　　ولا مطال ، ولا وعد ، ولا مذل

ومن الواضح أن تعالى المتنبى أو اتزانه راجع إلى حالته النفسية وما يثيرها ، فلقد يحس الثورة إذا كدر عيشه ، وقلق خاطره ، وقرأ فى أعين حساده وشانئيه البغض والشنآن ، ويحس الطمأنينة والدعة إذا طاب عيشه ونعم جواره ، ولقى التقدير[2] .

٦ - فى القصيدة معان وصور ، تكاد تكون فريدة ، وإن لم تخل من أن يقال فيها . ونذكر منها الأمثلة الآتية :

(أ) وكان بها مثل الجنون ، فأصبحت　　　ومن جثث القتلى عليها تمائم

فيه تصوير لما أصاب قلعة (الحدث) من اضطراب ؛ بسبب استيلاء الروم عليها ، وجهدهم فى فتنة أهلها عن دينهم ، فأشبه هذا الجنون ، ولما كان الجنون يعالج فى وقته بالتميمة ، بحسبانه لونا من ألوان السحر ، صح لدى المتنبى أن يعالج نظير الجنون بنظير التميمة ، وهو كما يذكر جثث القتلى من الروم علقها سيف الدولة على أبواب القلعة .

---

(١) انظر نقد الشعر لقدامة ص ٢٨ وما بعدها ، وعيار الشعر لابن طباطبا ص ١٢ وما بعدها ، والعمدة لابن رشيق ١/١٩٠ وما بعدها .

(٢) وانظر تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى لابراهيم على أبى الخشب — دار الفكر العربى — ص ٤٣٤

وقد قيل : إن أبا تمام سُبق إلى هذا المعنى ، وذلك فى قوله :

تكاد عطاياه يجن جنونها إذا لم يعوذها بنغمة طالب .

(ب) بقدى أنم الطير عمرا سلاحه نسور الملا : أحداثها ، والقشاعم

وما ضرها خلق بغير مخالب وقد خلقت أسيافه والقوائم !

فيه معنى يمكن أن يهتدى إليه أصحاب الملاحظة ، حين يلاحظون تحويم الطير فوق مظان مطعمها ، وهو معنى متداول ، منذ قال النابغة الذبيانى :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدى بعصائب

جوانح ، قد أيقنّ أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالب

وأخذه أبو نواس فقال :

تتأيا الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره

وقال مسلم بن الوليد :

قد عوّد الطير عادات وثقن بها فهنّ يتبعنه فى كل مرتحل

وقال أبو تمام :

وقد ظللت أعناق أعلامه ضحا بعقبان طير ، فى الدماء نواهل

أقامت مع الرايات ، حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقاتل

فكل من النابغة ومسلم وأبى تمام يحرك طيره ، وأبو نواس يجعله ينتظر ، والمعنى أن الطير تفيد من غزوات الممدوح مطعمها ورزقها ، وهذا هو أيضا ما ذهب إليه المتنبى فى بيته ، ولكنه أضاف إلى المعنى جديدا فى تصويره التفدية ، فجعل الطير مستعدة للدفاع والنضال اعترافا بالجميل لصاحبه ، بينما نفى أبو تمام عنها ذلك فى معرض الظن بأنها من صفوف الجيش ، والظن أدنى شأنا من التقرير الذى لجأ إليه المتنبى وكذلك زاد المتنبى نفيه — أو إنكاره — حاجة ضعاف النسور الى مخالبها ؛ لأنها ضمنت رزقها ، يأتيها رغدا من كل مكان يطؤه جيش الممدوح

(حـ) وقفت ، وما فى الموت شك لواقف، كأنك فى جفن الردى ، وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى ، هزيمة ، ووجهك وضاح ، وثغرك باسم

معنى هذين البيتين يكرره الشاعر ويعيده ، ومن ذلك قوله :

صدمتهم بخميس ، أنت غرته ، وسمهريته ، فى وجهه غمم
فكان أثبت ما فيهم جسومهم يسقطن حولك ، والأرواح تنهزم

ومن ناحية التصوير : سبقت الاشارة إلى أنه يصور سيف الدولة فى ساحة الحرب شجاعا ، باسما مشرقا ؛ لثقته من النصر على عدوه .

وقد قيل [١] : إن سيف الدولة قد عاب البيتين بأن شطرى كل منهما لا يلتئمان ، وقد كان ينبغى عنده أن يقول المتنبى :

وقفت ، وما فى الموت شك لواقف ، ووجهك وضاح ، وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى ، هزيمة ، كأنك فى جفن الردى ، وهو نائم

وناظر سيف الدولة صنيع شاعره بصنيع امرىء القيس فى قوله :

كأنى لم أركب جوادا للذة ، ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ، ولم أقل لخيلى : كرى كرة بعد إجفال

وحقها عند سيف الدولة :

كأنى لم أركب جوادا . ولم أقل لخيلى : كرى كرة بعد إجفال
ولم أسبأ الزق الروى للذة ، ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

فقال المتنبى ؛ دفاعا عن شعره وشعر امرىء القيس : « إن صح أن الذى استدرك على امرىء القيس هذا كان أعلم بالشعر منه فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا . ومولانا (يعنى سيف الدولة) يعلم أن الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك ؛ لأن البزاز يعرف جملته ، والحائك يعرف جملته وتفاريقه ، لأنه هو الذى أخرجه من الغزلية إلى الثوبية . وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد ، وقرن السماحة فى شراء الخمر للأضياف بالشجاعة فى منازلة الأعداء . وأنا

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى ١/٢٠١ وما بعدها .

لما ذكرت الموت فى أول البيت أتبعته بذكر الردى — وهو الموت نفسه — ليجانسه ، ولما كان وجه الجريح المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوسا ، وعينه من أن تكون باكية ؛ قلت : (ووجهك وضاح وثغرك باسم) ؛ لأجمع بين الأضداد فى المعنى ، وإن لم يتسع اللفظ لجميعها » .

وسواء أكان هذا الدفاع من المتنبى أم كان منسوبا إليه لقد كفانا فى هذا الموضع .

(٤) مضى يشكر الأصحاب فى فوته الظبا . . . . الأبيات الثلاثة

فيها تبدو فكرة التهكم بالدمستق قائد جيش الروم ، الذى أفلت ناجيا بجلده ، فهو يشكر أصحابه الذين شغلت بهم سيوف سيف الدولة وأصحابه ، وكان صوت هذه السيوف لغة لم يفهمها إلا ذلك القائد ، الذى فرح بنجاته وسلامته ، بعد أن قدم جيشه وماله طعمة للحرب وغنيمة للمنتصر .

وهذه الفكرة التهكمية عينها بما يصحبها من تصوير يجلوها ، يكررها المتنبى فى أكثر من موضع :

— لعلك يوما — يا دمستق — عائد فكم هارب مما إليه يؤول

نجوت بإحدى مهجتيك جريحة وخلفت إحدى مهجتيك تسيل

— مرايك تترى ، والدمستق هارب ، وأصحابه قتلى ، وأمواله نهبى

أتى « مرعشا » يستقرب البعد مقبلا وأدبر — إذ أقبلت — يستبعد القربا

(هـ) تفيت الليالى كل شىء أخذته وهن لما يأخذن منك غوارم

إذا كان ما تنويه فعلا « مضارعاً »

« مضى » قبل أن تلقى عليه « الجوازم »

فكرة البيتين — كما أحسنا — أن سيف الدولة ذو قدرة نافذة فائقة ، وبدوره الشاعر أعلى من الزمان قدرة وشأناً ، فسيف الدولة يسلب الليالى ،

ولا تستطيع هي أن تسلبه ، بل إنه يدينها ، وهي لديه غارمة . وسيف الدولة ينفذ ما ينويه ، ويعجل بفعله في الحال ، قبل أن تعترضه القيود التي تحول دون إنفاذه ، وفي هذه ينقل خيال الشاعر من مصطلحات علم « النحو » ويصطنعها ، فيشبه أمر ممدوحه النافذ بالفعل المضارع ، وهو في طبيعة وقته صالح للحال والاستقبال ، ولكنه في خيال المتنبي قد « مضى » ، أي تحول بالإنفاذ إلى وقت الماضي ، قبل أن تلقى عليه الجوازم ، وخاصة الجوازم الشرطية ، أي أن الممدوح يتحرك لفعله قبل أن يقال له مثلا : لتفعله (أمرا) ، أو لا تفعله (نهيا) . أولم تفعله (نفيا أو انكارا). أو (لما تفعله) نفيا موصولا بالحاضر . أو إن تفعله تحصل على كذا وكذا ، أو إن ترد أن تحصل على كذا وكذا تفعله (واقعا في شرط قيدا أو نتيجة) .

وللمتنبي أخيلة ، يأخذها من : النحو ، والصرف ، والبلاغة ، والمنطق ، والفلسفة ، وعلم الكلام ، والفقه ، والحساب ، والفلك ، والتاريخ ، تطالع قارىء ديوانه بين الحين والحين .

ومن اصطناعه لمصطلحات النحو قوله مماثلا في المعنى ما نحن بصدده :

يتفزع الجبار من بغتاته فيظل في خلواته متكفنا
أمضى إرادته «فسوف» له «قد» واستقرب الأقصى فثم له «هنا»

فـ « سوف » للاستقبال ، و« قد » للمضي ومقاربة الحال ، فكأنه يقول : إذا نوى الممدوح أمراً فكأنما يسابق نيته [١] .

(و) نثرتهم فوق الأحيدب نثرة كما نثرت فوق العروس الدراهم

فيه خيال يستمده من مظاهر التحلي ، وهو كما ترى جاء على سبيل التشبيه ، تشبيها أقرب إلى وصف ما يقع منه إلى الرقة أو الحلاوة ، التي قد يوحي بها المشبه به .

---

(١) يتيمة الدهر ١/١٨٣

٧ — عيب على المتنبى إكثاره من ذكر « ذا » فى كثير من شعره (١) .
ومنه قوله فى القصيدة :

— وكيف يرجى الروم والروس هدمها
وَ « ذا » الطعن آســاس لها ودعائم
— أفى كل يوم « ذا » الدمستق مقدم
قفاه على الأقدام للوجــه لائم

و « ذا » فيما ينقل « الثعالبى » عن « القاضى الجرجانى » ضعيفة فى صنعة الشعر ، ودالة على التكلف ، « وأنت لا تجد منها فى عدة دواوين جاهلية حرفا ، والمحدثون أكثر استعانة بها ، لكن فى الفرط والندرة ، أو على سبيل الغلط والفلتة » .

ونحن لا نرى هذا الصنيع أمرا مطردا ، فإن « ذا » — وكذلك أشباهها — مقبولة غير مرفوضة إذا جاءت فى موضعها من الشعر ، ووافقت محلها الذى تليق به .

والبيت الأول هنا ، لا نحس بأن « ذا » فيه قلقة مضطربة ، فهى مقبولة .

والبيت الآخر (أفى كل يوم . . .) معيب عند « الثعالبى » ؛ بسبب « ذا » ، وما نراه كذلك ، فإن « ذا » هنا إشارة تحقير وتسفيه ، مثلها فى قول المتنبى فى إحدى كافورياته :

أبا المسك ؛ « ذا » الوجهُ الذى كنت تائقا
إليه ، و « ذا » الوقتُ الذى كنت راجيا

وفى رأينا أنه ليس ثم لفظ شعرى وآخر غير شعرى ، فأى لفظ أدى إلى إصابة المعنى والعبارة عن إحساس الشاعر ، إنما هو لفظ صالح للاستعمال ، و ليس ينبغى النظر إلى اللفظ مفردا ، بل ينبغى النظر إليه فى تركيب عبارته .

---

(١) المرجع نفسه ١٦٣/١ وما بعدها .

النص الثانى

قال أبو العلاء المعرى ، يرثى أباه :

١ - نقِمْتُ الرضا حتى على ضاحكِ المُزْنِ ... فلا جادنى إلا عَبوسٌ من الدُّجْنِ

٢ - وليت فمى إن شام سِنّى تبسُّمى ... فمُ الطعنةِ النجلاء ، يَدْمَى بلا سِنّ

٣ - كأنّ ثناياه أوانسُ ، يبتغى ... لها حُسْنَ ذِكْرٍ بالصيانة والسجن

---

١ - نقمت الرضا : عبته وأنكرته (من بابى ضرب وحذر) . والرضا : ضد السخط فيقتضى القبول والاطمئنان . ضاحك المزن : أى المزن الضاحك من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والمزن : السحاب ، أو أبيضه ، أو ذو الماء ، والقطعة (مزنة) ، والمزن الضاحك الذى فيه برق ، فالبرق له ضحك على التشبيه . لا جادنى : جملة دعائية ، والجود المطر ، وجاده المطر : مطره . عبوس : مبالغة من العبس والعبوس ، وعبوس الوجه : كالحه ، والمراد به هنا السحاب المتجهم الذى لا برق فيه ؛ الدجن : المطر الكثير وأقطار السماء وإلباس الغيم الأرض .

٢ - شام : شامه - نظر إليه أو أظهره ، وهذا مأخوذ من شام الرجل السيف إذا استله . الطعنة النجلاء : الطعنة الواسع ما تحدثه من شق أو جرح ، والنجلاء من النجل (ساكن الوسط) ومن معانيه الشق والطعن . يدمى : مضارع دمى (من باب تعب) يخرج دمه .

٣ - ثناياه أى ثنايا فمه ، والثنايا : أربع الأسنان فى مقدم الفم ، وفى كل فك اثنتان . أوانس : جمع آنسة وهى المرأة الطيبة النفس ؛ المحبوب قربها وحديثها . يبتغى : يطلب . الصيانة : الحفظ مصدر صانه صونا وصيانا وصيانة أى حفظه . السجن : (بفتح فسكون) الحبس ، والسجن (بالكسر) المحبس .

٤ – أبِى حكمتْ فيه الليالى ولم تزَلْ رماحُ للمنايا قادراتٍ على الطعن

٥ – مَضَى طاهر الجثمان والنفس والكرَى وسُهْد المُنَى والجيب والذيل والرُّدْن

٦ – فياليت شعرى هل يخف وَقارُه إذا صار « أُحْدٌ » فى القيامة كالعِهْن

٧ – وهل يَرِدُ الحوضَ الروى مُبادِراً مع الناس ، أم يأبى الزحامَ فيستأنى

---

٤ – حكم : قضى أو نفذ الحكم . وحكمت فيه الليالى : قضت فيه بالموت ، وإسناد الفعل إليها مجازعقلى . المنايا : جمع منية – فعيلة من المنى – وكلاهما بمعنى الموت . ورماحها : أدوات نضالها من باب الاستعارة المكنية . الطعن : الضرب والوخز .

٥ – مضى : هنا بمعنى مات . ويكون بمعنى نفذ أو خلا ، طاهر : اسم فاعل يدل على صفة الطهر والطهارة وأصلها نقيض النجاسة ، وتستعمل الطهارة فى النزاهة والنقاء لزوما . الجثمان : الجسم والشخص . النفس : الروح . الكرى : النعاس . السهد : الأرق . المنى : الأمانى ، ومفرد الأولى المنية ومفرد الآخرة الأمنية . وسهد المنى أى السهر فى تمنى الأمانى . الجيب : طوق الثوب . الذيل : آخره . الردن : أصل كمه .

٦ – ليت شعرى : فى الأصل شعر به : علم به وفطن له وعقله ؛ وليت شعرى فلانا وله وعنه ما صنع أى ليتنى شعرت وعلمت . وقاره : الوقار (وزان سحاب) الرزانة . أحد : (بضمتين وأسكنه للوزن) جبل بمدينة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ونسبت إليه معركة أحد . القيامة : القومة الآخرة فى يوم الدين ، ويسمى يوم القيامة . قال تعالى : « لا . أقسم بيوم القيامة » .

العهن : الصوف مطلقا أو المصبوغ منه .

٧ – الحوض : حوض النبى – صلى الله عليه وسلم – فى الجنة ، وأصل الحوض مجمع الماء .

الروى : الكثير الذى يروى . مبادرا : مسارعاً ومعاجلا . يستأنى : يتثبت ويتمهل ، مثل يتأنى .

٨ ـ حِجًا زادَه مِن جرأة وسماحة — وبعضُ الحجا داعٍ إلى البخل والجُبْن

٩ ـ على « أمِّ دَفْرٍ » غضبةُ الله . إنها — لأجدرُ أنثى أن تخونَ وأن تخنى

١٠ ـ كَعَابٌ ، دُجاها فَرْعُها ، ونَهارُها — مُحَيًّا لها ، قامتْ له الشمس بالحسن

١١ ـ رآها سليلُ الطين والشيبُ شامل — لها بالثريا ، والسِّماكَيْنِ ، والوزن

١٢ ـ زمانٌ تَوَالَتْ وَأْد « حواء » بِنْتِها — وكم وَأَدَتْ في إِثْر حواء من قَرْن

٨ـ الحجا : العقل والفطنة . الجرأة : الشجاعة . السماحة الكرم والسهولة . البخل : ضد الكرم وصاحبه باخل وبخيل . الجبن : (بضم وبضمتين وكقفل) ضد الجرأة .

٩ ـ أم دفر وأم دفار : الدنيا ، وتسمى الداهية أم دفر . وأصل الدفر : الدفع في الصدر والنتن . تخون : من الخيانة ، وهي أن يؤتمن الانسان فلا ينصح . تخنى : مضارع أخنى بمعنى أهلك . قال النابغة :

أمست خلاء وأضحى أهلها احتملوا — أخنى عليها الذى أخنى على لبد

١٠ ـ الكعاب والكاعب : في الأصل الفتاة كعب ثدياها أي نهدا وارتفعا . الدجى : جمع دجية وهى الظلمة . الفرع : الشعر التام . المحيا : الوجه .

١١ ـ سليل الطين : أى الإنسان . الثريا : النجم وهى في الأصل تصغير (ثروى) وامرأة ثروى أى متمولة كثيرة المال وسمى النجم بذلك لكثرة كواكبه مع ضيق الموضع ، ولذلك صغر . السماكان : نجمان نيران ، ويسميان الأعزل والرامح . الوزن : هنا نجم يطلع قبل « سهيل » فيظن أنه هو .

١٢ ـ الوأد : في الأصل دفن البنت حية فهى وئيد ووئيدة وموءودة ، وكان من عادات أهل الجاهلية . حواء : اسم زوج آدم أبي البشر - عليهما السلام - ويرمز بها هنا للمرأة . قرن : القرن بالفتح أهل زمان واحد ، وأمة بعد أمة ، وكل أمة هلكت فلم يبق منها أحد

١٣ ـ كأنّ بنيها يولَدون وما لَهَا حليلٌ فتخشَى العارَ إن سَمحتْ بابنِ

١٤ ـ جهلنا، فلَمْ نعلم ـ على الحِرص ـ ما الذى
يُرادُ بنـا . والعـلمُ لله ذى المَنِّ

١٥ ـ إذا غُيِّب المرء استَسرَّ حديثُه ولم تُخبِر الأفكارُ عنه بما يُغنى

١٦ ـ تَضِـل العقولُ الهِبْرِزِيّات رُشْدَها
ولا يَسـلمُ الرأىُ القـوىُّ مـن الأفنِ

١٧ ـ وقد كان أربابُ الفصاحة كلما رأوا حَسَناً عدُّوه مِن صَنعة الجن

---

١٣ — الحليل : زوج المرأة ، والمرأة حليله وحليلته . العار : (يائى) كل شىء لزم به عيب . سمحت بابن : أى أبقت ابنها حيا فكأنها تجود به

١٤ — جهلنا : من الجهل وهو ضد العلم. الحرص : الجشع. المن : الإنعام .

١٥ — غيب المرء : أى وضع فى قبره . استسر الحديث واستسر الأمر : خفى . يغنى : يفيد وينفع ، ويغنى عنه : يكفيه .

١٦ — الهبرزيات : منسوبة إلى الهبرز ، ويغلب على الظن أنها كلمة فارسية ، ولها عدة معان منها : الذهب الخالص ، والدينار الجديد ، والجميل الوسيم من كل شىء وأحد أساورة الفرس . فالعقول الهبرزيات أى الخالصات من الغش. الرشد : الاستقامة على طريق الحق وحسن التقدير . الأفن : ضعف الرأى وضعف العقل .

١٧ — الجن والجان : خلق الله الذى يخفى عنا . وصنعة الجن : أى وحيهم وإلهامهم . ومن العرب من كان ينسب كل عمل عجيب أو قول بليغ يصدر عن الناس إلى الجن ؛ زعما منهم أن لكل إنسى جنى يلهمه ويوجهه .

١٨ ـ وما قارنتْ شخصا من الخلق ساعة
من الدهر إلا وهى أفتكُ من قِرن

١٩ ـ وجدنا أذى الدنيا لذيذا كأنما جَنَى النحل أصنافُ الشقاء الذى نَجنى

٢٠ ـ فما رغبتْ فى الموت «كُدْر» مسيرُها
إلى الوِرد خمسٌ ثم يشربْن من أجْن

٢١ ـ يُصادفْن صقرا كلَّ يوم وليلة ويَلقَيْن شرًّا من مَخالبه الحُجن

---

١٨ — قارنت : من المقارنة وهى المصاحبة . أفتك: أفعل من الفتك وهو الجرأة وانتهاز الفرصة للقتل القرن (بالكسر) : الشجاع على المموم أو كفؤك فى الشجاعة ، والسيف .

١٩ — اللذيذ : الطيب وغير المؤلم جنى النحل: العسل . الشقاء : الشدة والعسر ومثله الشقا والشقوة (بفتح أو كسر) والشقاوة .

٢٠ — رغب فى الموت أراده . ويتعدى رغب بفى فيكون بمعنى أراده ، وبعن فيكون بمعنى كرهه ولم يرده وبالى فيكون بمعنى ابتهل وتضرع وسأل . كدر : ضرب من القطا يميل لونه إلى الكدرة أى الغبرة رقش الظهور صفر الحلوق. الورد (بالكسر) النصيب من الماء . خمس . أى خمس ليال أجن : من أجن الماء (من باب جلس وقعد وكرم وفرح) تغيرطعمه ولونه . ويشربن من أجن هنا أى من ذى أجن . أو أن أصله أجن (مثال كتف) نخفف ، أو آجن فوضع المصدر موضعه للمبالغة كما يقال فى عادل : عدل .

٢١ — المخالب : جمع مخلب وهو المنجل وظفر كل سبع من الحيوان والطير. ويقال : المخلب لما يصيد من الطير والظفر لما لا يصيد . الحجن: جمع حجناء وهى المعوجة المعطوفة .

٢٢ - ولا «قَلِقَاتِ الليل» باتتْ كأنها — من الأَيْنِ والإدْلاجِ بعضُ القنا اللُّدْنِ

٢٣ - ضَرِبْن مَلِيعاً بالسنابكِ أربعا — إلى الماء لا يَقدِرن منه على مَعْنِ

٢٤ - وما استعذبته روحُ موسى وآدمٍ — وقد وُعِدا من بعده جنتَيْ عَدْنِ

٢٥ - أمَوْلَى القوافى كم أراك انقيادَها — لك الفصحاءُ العُرْبُ كالعَجَمِ اللُّكْنِ

٢٦ - هنيئاً لكَ البيتُ الجديد مُوَسَّدا — يمينكَ فيه بالسعادة واليمن

---

٢٢ — قلقات الليل: حمر الوحش، سميت بذلك لتلقها وهى تسير إلى الماء ليلا، لأنها تخشى أن تصاد نهارا فلا تسير فيه، وتنتظر الليل. الأين: الإعياء. الإدلاج: سير الليل كله. القنا: الرماح واحدتها قناة. اللدن (بالضم): جمع لدن (بالفتح) وهو اللين من كل شيء.

٢٣ — المليع: الأرض الواسعة، أو التى لا نبات فيها، أو البعيدة المستوية. السنابك: جمع سنبك (مثال قنفذ) وهو طرف الحافر. أربعا: أى أربع ليال. المعن: يطلق على القليل والكثير والماء الظاهر وكل ما انتفعت به.

٢٤ — استعذب الشيء: رآه عذبا؛ والعذب من الطعام والشراب كل مستساغ. الروح: ما به حياة النفس، يؤنث ويذكر.

٢٥ — مولى القوافى: ربها وصاحبها. والقوافى: جمع قافية وتطلق على آخر كلمة فى البيت، (أو) على كل ساكنين فى آخر البيت مع الحركة التى قبل الساكن الأول، (أو) على الحرف الذى تبنى عليه القصيدة، وقد يسمى هذا «الروى». وقد أطلق القوافى وأراد الشعر بعامة على سبيل المجاز المرسل علاقته الجزئية. العجم: غير العرب. اللكن: جمع ألكن وهو من لا يقيم العربية

٢٦ — هنيئا: أصل الهنيء ما أتاك يسيرا بلا مشقة ولا عناء، وطعام هنيء: سائغ لذيذ. موسد: اسم فاعل أو مفعول، تقول: وسّد فلان الشيء جعله وسادة له ووسّد يمينه جعل يده اليمنى وسادة، والوسادة: المخدة والمتكأ، ويقال: إن الميت يوسد يمناه فى قبره. السعادة: خلاف الشقاوة. اليمن: البركة.

٢٧ ـ مجاور سَكْنٍ في دِيارٍ بَعيدة ... من الحي . سَقْياً لِلدِيار ولِلسَّكن

٢٨ ـ طلبتُ يقيناً مِن «جُهَيْنَةَ» عنهمُ ... ولن تُخبِريني يا «جهينُ» سِوى الظَّن

٢٩ ـ فإن تَعْهَديني لا أَزالُ مُسائِلاً ... فإنّيَ لم أُعْطَ اليقينَ فأَستغني

٣٠ ـ وإن لم يكن للفضل ثَمَّ مزيةٌ ... على النقصِ فالويلُ الطويلُ مِن الغَبْن

---

٢٧ — المجاور : الجار . السكن (بفتح فسكون) . أهل المنزل ، اسم جمع ، والواحد ساكن ؛ مثل شرب وشارب وصحب وصاحب ، والمراد بالسكن أهل القبور . ديار : جمع دار . سقيا : دعاء بالسقيا وهي في الأصل طلب نزول المطر ، وهو هنا يدعو للقبور وساكنيها بالرحمة .

٢٨ — اليقين : العلم والتحقق وإزاحة الشك . جهينة : قبيلة من قضاعة ، وفي المثل : (وعند جهينة الخبر اليقين) ، وأصله (مورده) أن رجلا من جهينة اسمه الأخنس خرج مع رجل من كلاب اسمه حصينة بن عمرو ، ونزلا منزلا ، فقام الجهني إلى الكلابي فقتله وأخذ ماله وعاد بها إلى جهينة ، وسمع الأخنس مرة صخرة أخت حصين تبكيه وتسأل عنه ، فقال الأخنس في ذلك :

تسائل عن حصين كل ركب ... وعند جهينة الخبر اليقين

ويضرب المثل فيمن يعرف الأمر معرفة يقينية .

الظن : التردد الراجح بين طرفي الاعتقاد غير الجازم .

٢٩ — تعهديني : تعرفيني ، ولها معان أخر . مسائلا : سائلا ، من السؤل والسؤال . أستغني : استغنى بالشيء اكتفى به عما سواه .

٣٠ — الفضل : الزيادة والامتياز . المزية : الفضيلة ، وفي الصحاح : لا يبنى منها فعل ، وفي أساس البلاغة : مزيت فلانا قرظته وفضلته ، وتمزيت علينا يافلان أي تفضلت . الغبن : النقص والنسيان والغفلة والغلط . وفي البيع : الغش .

٣١ - أمُرُّ بِرَبْعٍ كنتُ فيه كأنما ... أمر - مِن الإجلال - بالحجر والرُّكن

٣٢ - وإجلالُ مَغْناك اجتهادُ مُقصِّر ... إذا السيفُ أَوْدَى فالعَفاءُ على الجفْن

٣٣ - لقد مَسَخَتْ قلبي وفاتُك طائراً ... فأقسم أن لايستقرّ على وَكْن

٣٤ - يُقضِّى بقايا عَيْشه وجناحُه ... حثيثُ الدواعي في الإقامة والظَّعن

---

٣١ — الربع: المنزل وحلة القوم . الحجر: حجر الكعبة وهو ما حواه جدار البيت الحرام المدار به من جهة الشمال . الركن : واحد الأركان والبيت الحرام أربعة أركان ، والركن اليماني منها هو الذي يستلمه الحجيج . الاجلال: الإعظام .

٣٢ — المغنى: المقام — المكان الذي يغنى ويقيم به أهله ثم يرحلون عنه ، أو هو عام . الاجتهاد : الجد كالجهد ، ويستلزم المشقة في بلوغ الغاية ، وكل مجتهد يبذل جهده وطاقته حتى يتحقق له غرضه . مقصر : من قصر (مشددا) ، يقال : قصر في حاجته ، وقصر عن منزلته ، وقصر به عمله ؛ أى لم يوف حاجته حقها ، ولم يبلغ منزلته ، ولم يوصله عمله إلى غايته ، وكلها ترجع إلى القصر وهو ضد الطول . أودى : هلك وكلاهما لازم . العفاء : مصدر من مصادر عفا. يقال: عفا المنزل بمعنى درس أى خفيت آثاره ومعالمه .

الجفن : هنا جفن السيف وهو غلافه . وجفن العين غطاؤها من أعلاها وأسفلها .

٣٣ — مسخه : حوّل صورته إلى صورة أقبح منها . الوكن : عش الطائر في جبل أو جدار ، وقال الأصمعي: إنه مأوى الطائر في غير عش أما مأواه في عش فيسمى (الوكر) .

٣٤ — حثيث : سريع أومسرع . الدواعي: الصروف والأحداث واحدتها داعية ، والداعية أيضا صريخ الخيل في الحرب . الظعن : السير والارتحال ، ضد الاقامة .

٣٥ ـ كأن دعاء الموت باسمك نَكْزَةٌ فَرَتْ جسدى والسمُّ ينفث فى أُذُنى

٣٦ ـ ضعفتَ عن الإصباح والليلُ ذاهب
كما فَنِيَ المصباحُ فى آخر الوَهْن

٣٧ ـ وما أكثرَ المثنى عليكَ ديانةً لَوَ أنَّ حِمَامًا كان يَثْنيه من يُثْنى

---

٣٥ ــ نكزة : واحدة النكز، ومعناه الضرب والدفع ، ويقال: نكز الماء غار ، ونكزت الحية لسعت بأنفها ونكزت البئر فنى ماؤها (من باب قعد) . فرت جسدى: من فراه بمعنى شقه وقطعه صالحا كان أو فاسدا . ويقال: إن الفرى شق وقطع للاصلاح ، ينفث: من النفث وهو من الفم عمل شبيه بالنفخ وأقل من التفل . ومن المجاز : هذه امرأة نفاثة ساحرة ، وهذا رجل منفوث مسحور ، وهذا الشعر من نفاثات فلان ، وهذه نفثة مصدور ، ويقال: نفث فى روعى كذا (بالبناء للمجهول) أى ألهمته ، وفى المثل: (لا بد للمصدور أن ينفث) .

٣٦ ــ الإصباح : هو الصباح ، والإصباح أيضا الدخول فى الصباح ، ومن المادة : المصباح وهو السراج . فنى : عدم وهرم . الوهن: الوقت قريبا من منتصف الليل أو بعد ساعة منه كالموهن ، والوهن الضعف فى العمل .

٣٧ ــ يثنى (رباعيا) : مضارع أثنى وفاعله (المثنى) . تقول : فلان يثنى على فلان أى يصفه ، وقيل إنه خاص بالخير ، وقيل عام فى الخير وفى الشر . فعلى الأول جاء أثنيت عليه خيرا وبخير، وعلى الثانى يجوز : أثنيت عليه شرا وبشر . وتميل إلى استعماله فى الخير بخاصة .

ويثنى (ثلاثيا) مضارع ثنى (من باب رمى) تقول: ثناه أى عطفه ورد بعضه على بعض فانثنى وتثنى واثنونى أى انعطف .

الحمام (مثال كتاب) : الموت أو قدره .

٣٨ – يُوافيكَ مِن ربٍّ العلا الصدقُ بالرضا
بشـــراً ، وتَلْقاكَ الأمانةُ بالأَمْن

٣٩ – ويُـكنَى شهيدُ المرءغيركَ هَيْبةً وبُقْيا ، وإن يُسأل شهيدُكَ لا يَـكنى

٤٠ – يُصرِّحُ بقوْل المسك دُونَكَ نفحةً
وفعْلٍ كأمواه الجِنـــان بلا أَسْن

٤١ – يَدٌ يادَتِ الحسنَى وأنفاسُ رُبها تُقًى ، ولسانٌ لا يُحرَّكُ بالَّسْن

---

٣٨ – الأمانة : ضد الخيانة . والأمن ضد الخوف .

٣٩ – يكنى : من الـكنية وهى التسمية باسم يبدأ بأب أو أم .

ويكنى : من الـكناية . وهى فى الأصل ترك التصريح ، وأراد منها البلاغيون كل لفظ أطلق وأريد منه لازم معناه مع قرينة لا تمنع من ارادة المعنى الأصلى ، والذى يتكلم بالـكناية يتـكلم بمايستدل به على مايقصده ، أويتـكلم بشىء ويريد غيره ، أو يتـكلم بلفظ يجاذبه جانبا حقيقة أو مجاز .

الهيبة : الاجلال والمخافة كالمهابة .

بقيا (بالضم): اسم بمعنى الإبقاء . يقال: أبقى على فلان إذا أرعى عليه ورحمه . وهو من البقاء وهو العيش زمانا طويلا .

٤٠ – نفحة: طيبا . أمواه : جمع قلة لماء ، والمياه جمع الـكثرة ، مثل جمل وأجمال وجمال ، وهمزة ماء مبدلة من الهـاء وألفه مبدلة من الواو . الجنان (بالـكسر) : جمع جنة (بالفتح) والجنة البستان وتسمى العرب النخيل جنة . الأسن : مصدر أسن ا من باب قعد وجلس) والماء آسن أى آجن أى متغير لايشرب .

٤١ – يادت جازت تقول : ياداه أى جازاه يدا بيد . الأنفاس: جمع نفس (وزان بطل) . تقى: التاء مبدولة من الواو، فالمادة الوقاية وهى الصيانة والـكلاءة والحفظ ، ومثل التقى التقوى ، وصاحبهما (تقى) على وزن (فعيل) . اللسن (بكسر فسكون) الـكلام واللغة .

٤٢ ـ فَلَيْتَكَ فى جَفْنٍ مُوَارَى نزاهةً	بتلك السجايا عن حَشَاىَ وعن ضِبْنى
٤٣ ـ وَلَوْ حَفَرُوا فى دُرَّةٍ مارضِيتُها	لجسمك إبقاء عليه من الدَّفْن
٤٤ ـ ولو أودعوك الجوَّ خِفْنا مَصيفه	ومَشْتاه ، وازداد الضَّنينُ من الضَّنّ
٤٥ ـ فياقبرُ . آهٍ من ترابكَ لَيِّنا	عليه ، وآهٍ من جنادلكَ الخُشْن
٤٦ ـ فهل أنتَ إن ناديتُ رَمْسك سامعٌ	نداءابنكَ المفجوعِ ، بل عَبْدِكَ القِنّ

٤٢ — موارى : اسم مفعول من واراه بمعنى أخفاه وستره النزاهة : البعد عن الشر وعن السوء . السجايا : الأخلاق والطبائع واحدتها سجية . الحشا (واوى ويائى) : موضع الطعام من البطن ، أو مادون الحجاب مما فى البطن من كبد وطحال وكرش، أو ما انضمت عليه الضلوع . الضبن (بالكسر) : ما بين الخاصرة والإبط، ويكاد يتكافأ طولا مع العضد أى الساعد من المرفق إلى الكتف .

٤٣ — الدرة (بالضم) : اللؤلؤة .

٤٤ — أودع : يتعدى لمفعولين تقول : أودعته مالا أى دفعته إليه ليكون وديعة ، ويتعدى لمفعول واحد تقول : أودعته بمعنى قبلت ما أودعنيه . الجو : الهواء أو ما بين السماء والأرض أو ما اتسع من الأودية . المصيف والمشتى : مصدران للصيف والشتاء أو اسما زمان . الضنين : البخيل ، وفعله : الضن .

٤٥ — آه : كلمة تقال عند الشكاية أو التحزن أو التوجع ، وهى مكسورة الآخر منونا وغيرمنون ، وفيها لغات أخر تجدها فى معجمك اللين : ضد الخشن ، ويجمع هذا على : خشن بضمتين ، مثل نمر ونمر ، وقد أسكنه الشاعر فى البيت للوزن .

٤٦ الرمس : تراب القبر وسمى به القبر ، وأصله مصدر رمس (من باب قتل) بمعنى دفن . المفجوع : الذى فجع أى أصابته الفجيعة وهى المصيبة والرزيئة . القن (بالكسر) العبد إذا استعبد هو وأبواه ، يستوى فيه المذكر والمؤنث والواحد والمثنى والجمع ، وربما جمعوا فقالوا : (عبيد أقنان) .

٤٧ – سأبكى إذا غَنَّى ابنُ وَرْقاءَ بهجةً　　وإن كان ما يعنيه ضِدَّ الذى أعنى

٤٨ – ونادبةٍ فى مِسْمَعى كُلُّ قَيْنةٍ　　تُغرِّدُ باللَّحْن البرىء عن اللَّحْن

٤٩ – وأحمل فيك الحُزْن حيًّا ، فإن أمُتْ
وألقَكَ لَمْ أسْلُك طريقا إلى الحُزْن

٥٠ – وبَعْدك لا يهوَى الفؤادُ مَسَرَّةً　　وإنْ خان فى وَصْل السُّرور فلا يَهْنى

---

٤٧ – الورقاء : الحمامة وأصلها وصف لها لأن فى لونها غبرة ، ويقال : أورق لون الجمل وغيره ؛ إذا كان لونه كلون الرماد · البهجة : الحسن (وبابه ظرف فهو بهيج ، والفرح والسرور (وبابه طرب فهو بهيج وبهج) ·

٤٨ – ونادبة : الواو واو « رب » ، وهى للتقليل أو التكثير بحسب الغرض (انظر مغنى اللبيب لابن هشام) . والنادبة : التى تبكى الميت وتعدد محاسنه . القينة : الأمة مغنية كانت أو غير مغنية . تغرد : من التغريد وهو التطريب فى الصوت والغناء . اللحن (الأول) التطريب والتغريد . و (الآخر) : بمعنى الخطأ .

٤٩ – الحزن (بالضم) : ضد السرور ، مثله الحزن (بفتحتين) .

٥٠ – يهوى : ماضى هوى (من باب تعب) بمعنى يحب والاسم منه الهوى . أما من باب رمى فبمعنى سقط إلى أسفل ومصدره هوى بضم الأول وفتحه وتشديد الآخر · السرور والمسرة : بمعنى واحد وهو ضد الحزن · خان : (من باب قال) خونا وخيانة ومخانة وفاعله خائن وخائنة وفاعلته خائنة . وصل السرور : بلوغه ، والوصل أيضا ضد الهجران ، وفى الثوب ونحوه جمع أجزائه . يهنى : أصله يهنئ مهموزا (من باب جلس وضرب ، ويأتى من باب فرح وقطع وظرف) وتقول : هنئ الطعام (لازما) صار هنيئا أى سائغا ، وهنىء فلان الطعام (متعديا) أى تهنأ به .

الجو العام للنص :

توفى عبدالله بن سليمان التنوخى المصرى، والد أبى العلاء سنة ٣٧٧ هـ [١] .
وكان هذا الوالد يتولى القضاء على « المعرة » و « حمص » من أعمال الشام ، كما كان أبوه وأجداده من قبله . وتنقل كتب الأخبار أن هذا الوالد كان من العلماء باللغة . ومن رواة الحديث ، ومن الأدباء الشعراء المرموقين ، وأنه كان المعلم الأول لابنه أبى العلاء ، فأثر به كثيرا من علمه وفضله [٢] .

وفى هذه القصيدة نقرأ حزن الابن لفقد أبيه وفجيعته بفراقه ، فقد كان له فى حياته سندا مكينا ، وكان قاضيا مرموقا ، وعميدا لقومه ، وصاحب مكانة مقتدرة فى العلم والأدب ، فاذا قضى ، والابن فى حداثته ، اعتصر هذا الألم ، وأسمعنا نغمة الحزن .

وأبو العلاء — فيما يقال — مارس النظم وهو فى سن الحادية عشرة ، فقصيدة الرثاء إذن من بواكير شعره ، ولسنا نذهب مذهب من يقول : إنه نظمها فى سن الثانية والثلاثين ، بدعوى أن أباه توفى سنة ٣٩٥ هـ [٣] . فما نحس فيها نضج الرجولية وخبرتها وتجربتها ووعيها ، وإنما هى مليئة بسذاجة الحزن المفجوع ، وإن طالعنا فيها جملة آراء فى الحيـاة والأحياء (الأبيات ١٤ — ٢٤) فهى آراء تقريرية لا تعدو سطح الحياة إلا إلى قليل من العمق ، ولا نقرأ فيها ما نقرؤه فى مثل رثائه للفقيه الحنفى :

غير مجد فى ملتى واعتقادى ‏ ‏ ‏ نوح باك ولا ترنم شـــاد

---

(١) على ما رواه ياقوت الحموى فى (معجم البلدان) .

(٢) كتاب ياقوت ، وكتاب الانصاف لابن العديم والأنساب للسمعانى وتاريخ الاسلام للذهبى .. وغيرها

(٣) على ما رواه ابن العديم وحاولت تحقيقه عائشة عبدالرحمن فى كتابها (أبوالعلاء المعرى) مصر الدار المصرية للتأليف والترجمة — ١٩٦٥ — ص ٦٦ وما بعدها .

جزئيات النص :

(١ - ٣) يبدأ الشاعر شعره بإعلان غضبه وإنكاره أن يرضى عن أى شىء، حتى على ما يضحك ويبتسم ، ولو كان هذا الضاحك صنعة الطبيعة ، ويدعو أن تبقى هذه الحال وتستمر ، فليس ثم أمل فى تغييرها ، وقد فقد أعز إنسان عليه ، ويتمنى أن تدمى جراحه فقد قضت الطعنة النجلاء على ثناياه موضع ابتسامه ومظهر سروره ، فكأنه يخفيها عامدا ويصونها عن أن تبتذل وأن تتكشف للناس ، شأن من يصون حريمه .

(٤ — ٨) حديث عن الموت الذى تعرض له أبوه الطاهر الماجد ، وإشارة إلى ما كان يتحلى به فى دنياه من : وقار ، وأناة ، وعقل زاده جرأة وسماحة ، ومحاولة لتصور ما يؤول أمره إليه عندما تقوم القيامة ؛ أيحتفظ بتلك الطباع ، التى كانت موضع فخار ابنه ، وعنوان فضله فى الدنيا ؟ أم تتغير تلك الطباع فى يوم الدين ، وتحل محلها طبائع أخر ، تقتضيها الحياة الآخرة ؟

(٩ - ١٣) تستبد به المرارة ، وقد أحس وحدته ووحشة الدنيا بعد أبيه ، فيدعو غضب الله ، ينصب على الدنيا الفتنة الخائنة ، التى لا هم لها إلا فتنة البشر وإغواؤهم ، وهى دنيا غير عفيفة ، بدليل أنها تدفع بأبنائها إلى الموت ، كأنها فاجرة تتخلص منهم واحدا بعد واحد ، وتخشى العار من بقائهم أحياء ، كما كان يصنع أهل الجاهلية ؛ إذ يئدون بناتهم خشية العار .

(١٤ - ٢٤) جملة آراء فى الحياة والأحياء ، بدأها بتقرير جهل البشر عما يراد بهم بعد هذه الدنيا ؛ لأنهم إذا غيبوا فى قبورهم وماتوا خفيت أحاديثهم وآثارهم ، ولا يستطيع الفكر أن يفى بتطلعاته عما يكون هناك من أمور الغيب . فإن هذه الأمور أضلت العقول الناضجة الخالصة وسلبتها رشادها ، فلم تسلم من الضعف ، بل إنها لم تعد تثق فى صلاحها ، على نحو ما كان العرب — مع رجاحة عقولهم — ينسبون إلى الجن ما يأتون من أعاجيب الحكمة والشعر ، ويعدون الجن ملهمتهم وصانعة فصاحتهم ، فكيف بمن هم أقل من العرب عقلا وحكمة .

وكل ساعة تمر من الدهر تتجزأ بالناس ، وتفتك ، وتشقيهم ، مهما كانوا شجعانا ، وما يجدون منها إلا الأذى، وما يحسون فى هذا الأذى إلا اللذة ، كأنه العسل المشتهى ، فهم عما يصيبهم منها راضون ، وبه قانعون ، وهذا مما يدعو إلى العجب والدهش .

وغير الناس مثلهم فى حب الحياة واستقبال أوزارها وأكدارها معا ، فهذه القطا تحب الحياة ، وتتجشم من أجل بقائها عناء البحث عن الماء ، ولو صادفت فى سبيل ذلك الطير الجارح ، الذى قد ينقض عليها ، ويسلبها حياتها .

ومثل آخر من حمر الوحش؛ يدفعهن حب البقاء إلى تجنب السير نهارا ؛ خوفا من الوحوش المفترسة ، وإيثار الليل بالسرى ، مع ما يلقين من المشقة ، ويبذلن من الجهد ، ويتعرضن للاعياء والنصب ؛ ذلك لأنهن راغبات فى الحياة وراغبات عن الموت .

وحتى الأنبياء والرسل ـ ومثل لهم بآدم أبى البشر وموسى الكليم ـ استساغوا الحياة ، وما استعذبوا الموت . على الرغم مما وعدوه من الجنات ، والنعمة فيها ، وقد كان هـذا الوعد كافيا لبث اطمئنانهم إلى الموت ؛ مجازهم إلى الخلود الأبدى والنعيم المقيم .

(٢٤ – ٢٧) يخاطب أبو العلاء والده ، ويذكره شاعرا فصيحا ، انقاد له الشعر ، فبلغ منه مبلغا خطيرا ، دانت له العرب . ويتهدهد حزن أبى العلاء فيهنئ أباه بمنزله الجـديد ، ويدعو له بالسعادة والبركة ، ويدعو للديار ـ أى القبور ـ وساكنيها بالسقيا والرحمة .

(٢٨ - ٣٥) يعود أبو العلاء إلى مقاله عن الحياة والأحياء وما يلقونه بعد

هذه الدنيا ، وهنا ترتفع نغمة الشك فى قيمة ما بعد الموت ، لأن الشاعر لم يستيقن بعد مزيتها وفضلها ، وإذا كان الأمر كذلك فالويل للأحياء من طول ما يغبنون وينقصون ويتغفلون .

وفيما يتعلق بأمره وأمر أبيه ، كان شاعرنا يرهب مقام أبيه ويجله فى حياته ، وها هو ذا اليوم يحفظ له الجلال نفسه والرهبة عينها ، فإنه يستحق التكريم حيا وميتا بل لقد استطير قلب الشاعر سخا ، فهو ثائر ، نافر ، لا يقر ، ولا يجد له سكنا ، وإنه ليعيش بقايا عيشه مستطارا ، حيثما أقام أو ظعن ، وما ذاك إلا أن الموت الذى لحق أباه كان ضربة مبرحة ، أثخنت جراح الابن ، ومزقت جسمه ، ونفثت فيه السم .

(٣٦ - ٤١) حديث عن اللحظة الفاصلة ، التى فصلت بين حياة أبيه ومماته ، فقد أتاه القضاء موهنا ، فعجز عن أن يستبقى الحياة إلى الصباح .

وما أكثر من كانوا ساعتها يثنون عليه بالخير ، ويصفون قدره ويعظمون أمره ، ويتحدثون - كما هى العادة - عن استحقاقه الحياة ؛ ليتم رسالته ، ولكن ذلك لا يمنع القدر الواقع والحمام النازل .

فلما كانت الأخرى كان الله - سبحانه وتعالى - قد تلقاه بالرضا والبشارة ، وحاطه بالأمن والصدق .

وحينئذ خرست ألسنة الناس فما تنطق إلا بحديث طيب صريح عن نفحات العزيز المفارق ، وعن أفعاله الصالحات ، وعما كان يجزيه إحسانا ، وعن أنفاسه التقية ، ولسانه العف .

(٤٢ - ٥٠) حديث الشاعر عن أثر الفجيعة فيه ، بدأه بتعزيه تلك الطبائع - التى اعتدها لأبيه - أن تغوب فى حشا الشاعر ، فكيف به يرضى التراب مستقرا لها .

ولو كان قبره من اللآلىء الغوالى مارضيه ، ولو أودعوه الجـو ما رضى ذلك له ؛ إشفاقا عليه من تعاور الأيام عليه ، وضنا به أن يقبر ، فما أوجع الأمر ! ، وآه من تراب القبر لينا كان أم خشنا !

ويتذكر الشـاعر ما كان هو عليه فى الدنيا ، حين يلجأ إلى أبيه ؛ يناديه ، ويشكيه ، أما الآن فإنه ينكر أن يسمع أبوه نداءه ، وإنه لذلك ولما صار إليه قد ضرب الحزن عليه ، فما ينطق إلا بكاء ، وما يسمع إلا نواحا ، وما يهدأ طالما تتردد فيه أنفاس الحياة ، فإذا ما خمدت هذه الأنفاس ولقى أباه نام حزنه وهدأ ، وتم له السرور ، الذى يفتقده الآن ، فلقد غاض معينة ، وذهبت دواعيه بذهاب أبيه ، ومن الخيانة وصل هذا السرور وبلوغه والبحث عنه ، ومن يفعل ذلك فلا أساغ الله حياته ولا جعله يهنئو بها !

أهم الصور :

١ — يصور حزنه على أبيه فى صورة إنـكار الرضا عن الحياة ، حتى ولو كانت مبتسمة بطبيعتها ، ويتخيل فى ذلك أنه لو أظهرت ابتسامتها سنه لأخفاها وصانها ، صيانة العرب لأوانيهم ونسائهم ؛ طلبا لحسن الذكر .

٢ — يصور الزمان متحكما فى أبيه وفى سائر البشر ، وفى ذلك يتخيل المنايا مقاتلة تصرع الأحياء .

٣ - يصور أباه طاهراً من جميع وجوهه ، فهو يكنى عن ذلك بعدة كنايات ؛ فطاهر الجثمان كناية عن عفة جوارحه ، وطاهر النفس كناية عن اعتقاده الحسن ، وطاهر الـكرى كناية عن صفائه الروحى فهو لا يرى فى منامه أضغاث الأحلام ، وإعا يرى الرؤى الصادقة التى تجىء مثل فلق الصبح وطاهر مهد المنى كناية

عن رفعة أمانيه وشغله بمعالى الأمور ، وطاهر الجيب كناية عن انطواء صدره على الأمانة والنزاهة والسماحة ، وطاهر الذيل كناية عن التعفف عن المحرمات ، وطاهر الردن كناية عن قبض اليد عما لا يحل وعدم تطاولها إليه .

٤ — يصور الدنيا تافهة نتنة ، هالكة مهلكة ، لا تستحق الحرص عليها ، وفى ذلك يتخيلها أنثى غانية خائنة ، تفتن البشر عباذلها ، فإذا ما حملت سفاحا وأدت أبناءها واحداً إثر واحد ؛ لأنها تخشى العار والشنار ، إذا هى أبقت عليهم ، فهم دليل جرمها ، ولذلك تئده .

٥ — يصور العقول ضالة رشدها أمام الموت ، وما وراءه من غيب ، ويناظر ذلك بما كانت تعتقده العرب أن وراء كل شاعر وحكيم وفصيح منهم جنا أو رئيا ، ينفث فيه ، ويلهمه ، ويوحى إليه بالشعر والحكمة والفصاحة .

ويضع تكالب الأحياء على الدنيا مع ما يلقون منها من أذى فى عدة أخيلة ؛ يراها فى الخلائق ، وفى القطا ، وفى حمر الوحش ، وفى الأنبياء والرسل ، على نحو ما ألمحنا من قبل .

ويضع شكه وظنه فى حقيقة ما بعد الموت موضع من طلب الخبر لدى أهله — وجهينة علم على هذا — فما استطاعوا أن يجيبوا سؤاله ، ويزيلوا شكه .

٦ — يصور فؤاده المحطم فى صورة القلب الذى مسخ طائرا ، فهو يتخيله مفزعا مستطارا نافرا ، يتعرض لما يمنعه من الاستقرار ، وما يمنعه من الرحلة ، فهو ممزق .

٧ — يصور نفسه فى صورة البخيل بأبيه على الموت الضنين به أن يوارى فى القبر ، وإنه ليضن بمزايا أبيه أن تغيب فى أحشائه ، فلا يرضى إذن أن يودع

جسمه حفرة ، ولو كانت درة ، أو أن يودع الجو ، ولو كان أرفع من الأرض قدراً ، وأوسع منها قطرا .

٨ — ويعود إلى تصوير حزنه فى صورة من يحمله ، ومن لا يهوى المسرة ، ويعتبر نفسه خائنا إذا رغب فيها ، فهو حزين بكاه ولو كانت الحياة من حوله تبتسم السرور والضحك ، فالحمامة — المشهورة بالتغريد والتطريب — غناؤها بكاء ، والقينة — التى تطرب فتعجب — ألحانها أنغام نادبة .

النظم :

١ — أول مانلاحظه هو اللفظ الرصين المتين ، وقد قلنا من قبل عن المغنى : إنه وأمثاله لم يكونوا يتصيدون شوارد المفردات من قواميس اللغة ، فإنما هى من معجمهم يفرزونها سهلة يسيرة عليهم ، وربما كانوا يتخاطبون بها .

وينطبق هذا على شاعرنا أبى العلاء ، مما يدل على تمكنه من اللغة ، سوى أننا لا ننفيه من القصد إلى البديع ، ومن ذلك :

(أ) الجناس : فى قوله : فلا جادنى إلا عبوس من الدجن — تخون وتخنى — وما قارنت شخصا ... أفتك من قرن — جنى النحل الذى يجنى — موسدا عينك فيه بالسعادة واليمن — فى البيت ٣٧ بين المثنى ويثنى ويثنى — تلقاك الأمانة بالأمن — يد يادت الحصى — لسان لا يحرك بالسن — تفرد باللحن البرىء عن اللحن .

(ب) الطباق والمقابلة فى قوله : ضاحك المزن وعبوس من الدجن — مضى طاهر الجثمان والنفس .. الخ البيت الخامس — يخف وقاره

إذا صار أحد فى القيامة كالعهن — مبادرا ويستأنى فى البيت السابع — حجا زاده .. الخ البيت الثامن — كماب دجاها فرعها ونهارها محياً لها — جهلنا فلم نعلم .. البيت — تضل العقول الهبرزيات رشدها . البيت — الفصحاء العرب كالعجم الكن — طلبت يقينا .. الخ البيت ٢٨ — وإن لم يكن للفضل . الخ البيت ٣٠ — حثيث الدواعى فى الاقامة والظعن — ضمنت عن الاصباح والليل ذاهب — ويكنى شهيد المرء . البيت ٣٩ — يصرح بقرل . . وفعل — خفتنا مصيفه ومشتاه — فياقبرآه من ترابك لينا .. البيت ٤٥ — سأبكى إذا غنى ابن ورقاء .. البيت ٤٧ — ونادبة فى مسمعى .. البيت ٤٨ — وأحمل فيك الحزن حيا فإن أمت .

ولسنا نذهب مذهب من ينعى البديع على الاطلاق ، وإنما نراه مقبولا إذا أسهم فى توفية المعنى المراد ، وجلاء الفكرة المعروضة ؛ فقد يزيد المعنى حسنا إذا قرن بما يجانسه ويشاكله ، وتزداد الفكرة جلاء إذا عورضت بما يقابلها ؛ وبضدها تتميز الأشياء .

ومن الأمثلة التى نقلناها عن قصيدة أبى العلاء المعجب ، ومنها المتكلف .. فن الأول ما ذكره فى البيت التاسع عن الدنيا وهو يلعنها (أجدر أنثى أن تخون وأن تخنى) فهى بما تصنع بأبنائها وتدفع بهم إلى الموت تخون — أدباً لا فقهاً — الأمانة التى تقتضيها أن تحرص على فلذات أكبادها فلا تقدمهم طعمة الموت ، وتخنى أى تهلكهم بهذه الخيانة . ومن هذا المعجب البيت السابع والأربعون :

سأبكى إذا غنى ابن ورقاء بهجة   وإن كان ما يعنيه ضد الذى أعنى .

[ونصرف النظر عن استعمال (ضد) فى الشعر وما يقال إنه لفظ غير شاعرى] . ونرى الشاعر يكشف — بالمقابلة — عن ذات نفسه وإحساسها بالحزن الدائم ، ولو كان ما حولها من ظواهر الحياة — التى ضرب ابن ورقاء لها مثلا — يحضه على البهجة والطرب

ومن الأمثلة المتكلفة : قوله : (لسان لا يحرك بالسن) ؛ فاللسان أداة الكلام ، واللسن من معانيه : اللغة والكلام واللسان ، وليس هناك كبير فائدة — فى معرض الإشادة بالميت المرثى — أن نقرر أن لسانه كان لا يتحرك باللغة ، أولا يتحرك بالكلام (ودع المعنى الثالث) ولذلك تعملنا بأن لسانه لايتحرك بالهجر والفحش ، أخذا من قولهم: الملسون الكذاب. ومن الأمثلة المتكلفة قوله

أمولى القوافى كم أراك انقيادها لك الفصحاء العرب كالعجم اللكن

فقد أعماه حبه لأبيه ، فرفع شأن شعره ، وجعل قوافيه تنقاد له ، حتى أربى على فصحاء العرب ، ولم يكتف بهذا المعنى ، وإنما زاده مبالغة أسهمت فيه المقابلة بأن جعل فصحاء العرب أمام قوافى أبيه كالعجم الذين لا يبينون .

٢ — ولزيادة هذه المسألة وضوحا نذكر أمثلة من شعر الوالد المرثى ، لنرى إلى مدى تبلغ به مقدرته . فما رواه له ابن العديم فى كتاب (الإنصاف والتحرى) هذان البيتان فى رثاء جارية له :

مولاك — يامولاة مولاها — على حال تسر عــــدوه ، وتضره
وبوده لو كنت أنت مــــكانه فى الزائرين وأن قبرك قبره

فالنظم يدل على حزنه عليها — ولا نناقشه فى هذا — وبلغ به حزنه أنه يود أن لو كان هو الميت وهى المتقبلة العزاء فيه ، وهو معنى تولده ساعة الحزن

يتبختر ، ولكن انظر إلى هذه الثلاثية (مولاك يامولاة مولاها) ففيها جناس قلق ، وإلى المقابلة بين (تسر عدوه وتضره) ولا تظن أنه يقصد ضد العدو فالضمير فى (تضره) وفى (عدوه) كلاهما يعود على (المولى) فى أول البيت ، فلم نكسب من هذه المقابلة إلا ما رأينا من هذا المضطرب .

ومن شعر هذا الوالد :

سمعتم بأجـــور من ظالم أعلّ الفـــؤاد وما عاده
وقد كان واعدنى مـــرة فأخلف — ياقوم — ميعاده

والمعنى مكرور ، والنظم من النمط العادى الذى لا يحتاج — كما يقول عبد القاهر[1] — إلى فكر وروية ، وإنما تتضد ألفاظه لتجتمع فى رأى العين .

ومثل هذا الشعر لا يربى به صاحبه على فصحاء العرب كما أخبرنا ابنه الشاعر . وعذر هذا الشاعر فى عمايته ، وفى أنه كان ما يزال يدرج ويحبو فى بلاط الشعر .

٣ — جملة الآراء التى عرضهـا الشاعر عن الحياة والأحياء ليس فيها ـ كما رأينا ـ كثير مما يدل على مذهب أبى العلاء الذى عرف به فى مجاهدة الدنيا والجرأة على الحياة ، وما نقرؤه فى شعره من تأملات وخطرات ، يذهب فيها إلى إيثار الموت على الحياة ، خلاصا من شرورها وآثامها ، وإلى الشك فى مصير البشر بعد أن ينقلوا من دار أعمالهم .

وإذا عثرنا هنا فى بعض الأبيات (٢٨ ـــ ٣٠) على نغمة الشك فى قيمة ما بعد هذه الحياة الدنيا ؛ لأن الشاعر لم يستيقن بعد مزيتها وفضلها ؛ فالويل إذن

(١) دلائل الاعجاز ص ٧٦ ط ٤ — للنار — ١٣٦٧ هـ .

للأحياء المغبونين المستغفلين — فإن هذه القمة لا ترتفع في أفكارها أو صورها إلى مثل قوله :

— ولو أني حبيت الخلد فردا لما أحببت بالخلد انفرادا

— خلق الناس للبقاء فضلت أمة يحسبونهم للنفاد

— كأني إذا طلت الزمان وأهله رجعت وعندي للأنام طوائل(١)

— ضجعة الموت رقدة يستريح الجسم فيها والعيش مثل السهاد

— إذا لم تكن دنياك دار إقامة فما لك تبنيها بناء مقيم

أرى النسل ذنبا للفتى لا يقاله فلا تنكحن الدهر غير عقيم(٢)

---

(١) طلت : فقت وأشرفت . الطوائل : الترات . أي كأن للأنام عندي ثأراً يطلبونه .

(٢) يقاله : يفارقه . من الإقالة وهي أخذ الشيء بثمنه ممن اشتراه إنقاذاً له من الغبن الواقع فيه على ما يتصوره .

النص الثالث

قال الشريف الرضي يهجو :

١ - لعلّ الدهرَ أمضَى منكَ غَرْبًا   وأقوى في الأمــــور يداً وقَلْبًا

٢ - ومُقلته إذا لحظتْ حُسامِي   تَغيضُ مهابةً وتَفيضُ رُعبا

٣ - فكيف وأنت أعمَى عن مَقالي   ولو عاينته لرأيتَ شُهبـــا

٤ - عذرتك . أنت أرْدَى الناس أصلا   وأخبثُ منصـــباً وأذلُّ جنبـــا

---

١ — أمضى : أفعل من المضي وهو الذهاب والدوام والنفاذ . غرب كل شيء : حده وحدته .

٢ — المقلة : شحمة العين التي تجمع سوادها وبياضها ، وتطلق على العين . لحظت العين : نظرت بمؤخرها عن يمين ويسار وهو أشد التفاتا من الشزر . الحسام : السيف . تغيض : تقل وتنضب وتنقص . المهابة : الإجلال والإعظام . تفيض : تكثر وتسيل ولا يكون السيلان إلا من امتلاء . الرعب : الخوف .

٣ — عاينته : رأيته بعينك يقال : عاين الشيء رآه بعينه . الشهب (بضمتين . وتسكين الأوسط للوزن) جمع شهاب وهو في الأصل شعلة النار الساطعة .

٤ — عذرتك يقال : عذره (من باب ضربه) رفع عنه اللوم فهو معذور أي غير ملوم . أردى : أفعل من ردى (من باب تعب) بمعنى هلك ، ويجوز =

٥ ـ وأنت أذلُّ في عينيّ مِن أنْ أرُوعَكَ أو أشُنَّ عليك حربا

٦ ـ أأعجبُ مِن خِصامك لي، وجَدّي رسولُ الله يُوسِعُ منك سَبّا

٧ ـ ومَن رَجَمَ السماء فلا عجيبٌ يُقالُ : حثَا بوجهِ الأرض تُربا

٨ ـ فإنك إن هجوتَ هجوتَ لَيْثاً وإني إن هجوتُ هجوتُ كلبا

=أن يكون (أردا) من (أردأ) وسهلت الهمزة ، وفعله ردؤ (من باب ظرف) بمعنى فسد واتضع . أخبث : أفعل من خبث خلاف طاب .

المنصب : الأصل أذل : من ذل ذلا ومذلة وهو ضد العز : الجنب : جنب الإنسان أي ما تحت إبطه إلى كشحه ، والجنب الناحية كالجانب

٥ — أروع : مضارع راعه أفزعه وهو المقصود هنا ، ويأتي بمعنى أعجبه . أشن حربا : أثيرها وأهيجها وأفرقها على الأعداء من كل ناحية .

٦ — يوسع : مضارع أوسع بمعنى صار ذا سعة وغنى، أو بمعنى اتسعت حاله . السب : الشتم والطعن والقطع .

٧ — رجم : أصله الرمي بالحجارة . حثا التراب يحثوه ويحثيه (من باب نصر وضرب) إذا هاله بيده أو إذا قبضه بيده ثم رماه . والباء في (بوجه) ظرفية .

٨ — هجوت : الهجاء ضد المدح فى الهجاء عيب ووقوع على النقائص . الليث : الأسد .

الجو العام للنص :

هذه الأبيات فى الهجاء ، وإن لم يصرح فى ديوان الشريف الرضى بهذا (١) ، وكنا نود أن نعرف داعية هذا الهجاء ، والدافع على قوله ، ولكن الظاهرة البينة فى الديوان كله تقسيم الشعر إلى أبواب المديح ، والافتخار ، والمراثى ، والنسيب والغزل ، والوصف . وماعداها يذكر تحت عنوان (الأغراض) ويقال : قال فى غرض له — كما جاء فى تقديم هذه الأبيات — أو : قال فى غرض آخر ، أو : قال وكتب بها إلى بعض أصدقائه ، أو : قال فى معنى ، أو : قال فى معنى آخر . وكأن جامع الديوان لم يشأ — تعففا أو تحرجا — أن ينسب إلى الشريف قول الهجاء صراحـــة .

جزئيات النص :

(١ — ٢) يقدم الشاعر بين يدى هجائه ، فيفخر ببأسه وفصاحته ، ويتمثل بالدهر الذى عركه وخبره وعرف فيه مثل هذه الصفات ، فغاض طرفه أمامه إجلالا ومهابة ، وجمل يفيض رعبا منه وخوفا . وإذا كان موقف الدهر منه كذلك — وهو المشهود له بالمضاء والقوة فلا يغلبه مغلب — فما بالك بمن لا يكافئه مضاء ولا يناظره قوة ، كهذا الخصم المهجو .

(٣ — ٤) يتهم الشاعر خصمه بالعمى عن إدراك فصاحة الشاعر ، ويتهكم به إذ يلتمس لخصمه عذرا من عدة أوجه ، كل منها لا يشرف : الضمة / الخبث / الذلة .

(١) ص ٨٥ من ديوان السيد الرضى الموسوى العلوى . طبعة مطبعة نخبة الأخبار (الهند) لصاحبها السيد محمد رشيد المهدى — سنة ١٣٠٦ هـ .

(٥ – ٨) ربأ الشاعر بنفسه أن يشغل بخصمه ؛ لأنه أحقر من أن يثير الشاعر لمناهضته وحربه ، ويجيبه بأنه نال من الرسول — عليه الصلاة والسلام — حين هجا الشاعر ، وذلك بحكم صلة القربى بين الرسول والشاعر .

ويرد عليه هجاءه ، فيريه أنه لم يبلغ من نفسه شيئا ، لبعد ما بينهما ، فالشاعر لا يميز خصمه ، كما لا يميز الليث الكلب .

أهم الصور :

١ – يصور الشاعر نفسه فى قمة البأس والفضل الوافر ، وفى هذا يناظر نفسه بالدهر ، الذى ترتعد فرائصه أمامه ، ويقف قبالته موقف الخاشع الهيابة .

٢ – يصور الشاعر فصاحته واضحة مشهورة مشهودا لها ، فمن ينكرها فهو الأعمى الذى لا يبصر ، ولو أبصر لراعه منها مثل الشهاب الساطع ، يبهر الأعين ويخطف الأبصار .

٣ – صورة الخصم هى صورة القليل الضئيل الحقير ، الذى لا يستأهل الشغلة به .

٤ – وصورة هجائه هى صورة التفاهة ، فهو مردود عليه ، وفى هذا يتخيل الشاعر خصمه كمن يرجم السماء فترتد الحجارة إلى وجه الأرض ترابا من جنس ترابها .

٥ – يضع الشاعر نفسه من خصمه فى مناظرة الليث من الكلب ، فأحدهما فى قمة المجد والآخر فى درك الحطة .

النقد :

١ – عرفنا الشريف الرضى فى شعره – بعامة – ينتصر للقيم الانسانية ، ويشيد بالمثل الأخلاقية ، فهو فى فخره يرينا من نفسه حاميا لتلك القيم والمثل ،

ويصلها بالعترة النبوية الشريفة ، وإذا مدح جمل تلك القيم والمثل محور مديحه ، ووضعها فى قائمة النعوت التى يبتغيها فى ممدوحه ، لأنّ الشريف ما كان يرغب فى عطاء هو عنه فى غنى ، ولا فى شهرة هو واقع فيها ، وإذا تغزل وصف لواعجه ، وأظهر حبه الأمثل ، الذى يعف عن الدنايا وعن الحسيات .

ولقد كان أدبه الذى أدب به يحتم عليه ذلك كله ، وكان منصبه كنقيب لأشراف الطالبيين فى بغداد يعلو به فى نظر نفسه وفى نظر الناس ، ويضعه فى مكان الإجلال والتكريم ، وفى منزلة قد لا تطاولها الخلافة نفسها فى ذلك الزمان (القرن الخامس الهجرى) (١) .

وفى بيت الشريف الرضى :

قد عز أصلى ، ويمز فصلى　　غنيت بالجد ، ولم أستغن

جماع أوصافه ونعوته .

٢ — ومثل هذا الماجد الشريف قد لا يتصور أن يصدر عنه الهجو وفحش القول ، إلا أن الحليم قد يستثار ، فيتوارى حلمه ، ويتبدى غضبه ، ولنا من قول الشريف الرضى :

* وللحلم أوقات ، وللجهل مثلها *

دليل على ذلك ، فأوقاته مقسومة بين الحلم وما إليه من أناة وصبر وثبات ، وبين الجهل وما إليه من جفاء وغلظة وإسراع إلى الانتقام .

---

(١) انظر خاتمة الديوان ص ٨٤٥

وإذ نعرف أن الشريف بطبعه لا يتطوع بالهجو، نعرف أيضا أن ما نقرؤه له هجوا إنما يصدر عن منطق الدفاع عن عرضه، والانتصاف لحقه، والغضب لمجادته المهدرة .

٣ — والهاجى لايكون ـ ولا ينتظر منه أن يكون - رفيقا بالمهجو، يمهد له الوطاء اللين، أويداعب مشاعره، أو يتألفه . وإنما يأخذ الهاجى بتلابيب المهجو، ويكيل له، ويفضح قوله أو فعله، ويضعه حيث ينبغى له أن يوضع فى درك المنازل؛ جزاء وفاقا لخبيث أمره وطويته، الذى دفع الهاجى إلى شجبه .

وهنا يرد الشريف الرضى الاساءة إلى خصمه، ويشعره بما جناه، ويبصره بما خفى عنه من فضائل، مما لو أمعن النظر فيها ما أساء، وترتفع نغمة التجريح فى هجاء الشريف فيرى صاحبه بالحقارة والخسة، ويشبهه بالكلب .

ولو وازنا بين أبياته وأبيات ابن الرومى :

وجهك — ياعمرو — فيه طول ... وفى وجوه الكلاب طول

مقابح الكلب فيك طرا ... يزول عنها ولا تزول

وفيه أشياء صالحات ... حماكها الله والرسول

فالكلب واف، وفيك غدر؛ ... ففيك عن قدره سفول

وقد يحامى عن المواشى؛ ... وما تحامى، ولا تصول

وجدنا الشريف الرضى يكتفى بتشبيه صاحبه بالكلب، ولا يوغل بوصفه إلى أعماق الاساءة والتجريح، أما ابن الرومى فيصور سخريته من صاحبه عمرو بأكثر من صورة، فهو يضعه والكلب على درجة سواء فى الشكل، وفى القبح، ويوازن بين خسة صاحبه ومزايا الكلب، ففى الكلب : وفاء، وجرأة، ونفع؛ بينما صاحبه على الضد : غادر، جبان، لا يغنى غناء الكلب بحال .

٤ — وهذا الشعر يحمل كثيرا من خصائص شعر الشريف، فالنظم متماسك، وفيه أثارة من المنطق والحجة ، و يبين مما كان الشاعر يميل إليه ويؤثره ، من رعاية الأسلوب العربي التقليدي ، وتلوينه بالبديع بقدر ، مع عدم الاغراق في الصنعة ، أو الإلحاح عليها .

وما في الأبيات من هذا البديع :

-- الجناس والطباق بين: تغيض وتفيض، حيث جعل عين الدهر أمامه تضؤل هائبة ويزداد رعبها ، وكلاهما يؤدي إلى الآخر ويستلزمه .

-- المقابلة في البيت الثالث أسهمت في وضوح فصاحة الشاعر ونباهته ، فلا ينكرها إلا ذو حس متبلد .

— وكذلك المقابلة في البيت السابع أوضحت صورة التفاهة ، التي ظهر فيها المهجو ، وأبانت له أن سهامه مردودة عليه ، وأنه بعقاله يتعب في غير طائل ، ويتجشم مشقة ذات بوار